جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الإبداع في رحم السياق الآزم
قراءة في قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه):
دراسة فنية تحليلية

إعداد
د/ نهى حمدي أحمد إبراهيم
مدرس بقسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الإبداع في رحم السياق الآزم قراءة في قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه): دراسة فنية تحليلية

نهى حمدي أحمد إبراهيم
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:Nh2030nh2030@gmail.com

الملخص:

طوَّفت هذه القراءة التي حملت عنوان (**الإبداع في رحم السياق الآزم –قراءة في قصيدة "عبد المعين الملوحي يرثي نفسه": دراسة فنية تحليلية**) في مسارب إبداع الشاعر لتقف على حضورٍ طاغٍ لشخصيته في ثنايا قصيدته في ذلك السياق النفسي العسر، فقد أماط اللثام عن طبائعه وفلسفته ورؤاه وأفكاره. وتُلْقي القراءة الضوء على اهتمامه البالغ بقضايا وطنه والعروبة، وقد كشف النص عن شاعريته البالغة التي زجَّت به في مصاف كبار الشعراء الذين رثوا أنفسهم في تاريخ العربية، فلقد جاد (عبد المعين الملوحي) في غضون تجربته بشِعْرٍ سلس نغمه، قويّ سبكه. وقد استطاع (الملوحي) أن يجمع بموهبته بين النَّفَس الشعري الطويل وجودة السبك ورائق اللفظ وجمال الصورة، ليُقَدِّم لوحةً فنيةً ماتعةً للمتلقي، يمَثِّل فيها (الوطن) نواةً مركزيةً وحجر الأساس في بنيتها.

وقد قُسِّم البحث إلى مقدمةٍ، وتمهيدٍ عرضت فيه أهم المصطلحات التي دارت القراءة في فلكها، وهي: (الموت/ الاحتضار/ الرثاء) في محضنها اللغوي والفلسفي، وخمسة مباحث، تناول أولاهم تحليل القصيدة موضوع الدرس (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) من ناحية المؤثرات والأبعاد، وانصرف المبحث الثاني إلى درس تلك المرثية في ضوء السياق الآزم الذي أفرزها، وبحث الثالث تجليات الماضي، واهتمَّ الرابع بعرض ثنائية (الأنا/ الآخر) فيها، وناقش أخراهم بعض الملامح الأسلوبية والتصويرية للقصيدة موضوع الدرس، وقد ذيلته بملخصٍ يحوي أهم النتائج التي توصلت إليها القراءة، وقائمةٍ بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

الكلمات المفتاحية: الموت، الاحتضار، رثاء النفس، عبد المعين الملوحي، الشعر العربي المعاصر، الأسلوبية.

Creativity in the womb of the necessary context to read in a poem (Abdul Moeen Al-Malouhi lamenting himself): An analytical art study

Noha Hamdi Ahmed Ibrahim
Department of Arabic Language, Faculty of Education, Alexandria University, Egypt.
Email: nh2030nh2030@gmail.com

Abstract :
This reading, which was titled (Creativity in the Womb of the Necessary Context - A Reading in the Poem "Abdul Moeen Al-Mallouhi Lamenting Himself": An Analytical Artistic Study), explored the paths of the poet's creativity to stand on the overwhelming presence of his personality within the folds of his poem in that difficult psychological context. Nature, philosophy, visions and ideas. The reading sheds light on his great interest in the issues of his homeland and Arabism, and the text revealed his extreme poetry, which placed him in the ranks of the great poets who lamented themselves in the history of Arabic. And (Al-Malouhi) was able to combine with his talent between the long poetic breath, the quality of casting, the elegance of pronunciation, and the beauty of the image, to present a pleasant artistic painting to the recipient, in which (the homeland) represents a central nucleus and the cornerstone of its structure.
The research was divided into an introduction, and a preface, in which the most important terms in which the reading revolved were presented, namely: (death / dying / lamentation) in its linguistic and philosophical incubation, and five topics, the first of which dealt with the analysis of the poem, the subject of the lesson (Abdul Moeen Al-Malouhi lamenting himself) in terms of influences And the dimensions, and the second topic devoted to the study of that elegy in the light of the imperative context that produced it, and the third researched the manifestations of the past, and the fourth concerned itself with presenting the binary (the ego / the other) in it, and the last of them discussed some stylistic and pictorial features of the poem subject of the lesson, and I appended it with a summary containing the most important results that I reached. To read, and a list of sources and references that relied on.

Keywords: Death, Dying, Self-Pity, Abdul Moeen Al-Malouhi, Contemporary Arabic Poetry, Stylistics.

مقدمة:

عندما تُبدِع وأنت تحتضر، عندما تُدَشِّن أجمل قصائدك وعينك وِجَاه الموت ترقب الشاطئ الآخر من الوجود، حين يقترب الموت حثيثًا منك، فلا تدفع أناتك إلا بالكلمة الشاعرة، حينما يوشك جسدك الفاني أن يتماهى مع التراب، فتسطر حينئذ خلودك بالقصيد، حينما تكون الكلمة هي السلاح الأوحد والأخير أمام الحقيقة الخالدة "الموت"، فإنك حينئذ تعلن أن الفن هو الحياة.

لقد زخر ديوان شعرنا العربي الحديث بمبدعين من أمثال: أمل دنقل، وبدر شاكر السياب، ومحمود درويش، وصالح الشرنوبي، وعبد المعين الملوحي– ارتأوا في الكلمة ملاذًا من الموت الذي يتخطفهم من دنياهم، فقد جاوز بعضهم بالفن والقصيد حد الملجأ، ليرى فيه حياةً ثرةً تمتلئ خصوبةً وألقًا، ورأى في الموت بشيرًا للخلاص من عذابات حياته الأرضية، فاستعصم بحبل القصيد، وآوى إلى قلل الإبداع. إن الموت في نظر ذلك الفنان هو الإهاب الذي تخلقت فيه الحياة، والبوتقة التي انصهرت فيها مقومات الوجود، والموت في نظر معظم هؤلاء الشعراء ليس معولًا للهدم والفناء، وانحسارًا لطاقة الوجود الإنساني، فلقد بَرَّح بهم المقام في هذه الحياة الصاخبة العسرة التي يصطلون بنارها، فرأوا في الموت الذي سيضمهم في حظيرته مقنعًا ومنجًى من شرور الحياة ومفاسدها.

إن الكلمة الشاعرة صارت مطرقةً يُدَقُّ بها على جُدُر الصمت الرهيب الذي التاعت منه نفوسهم الشاعرة، ولم يرتد صوت الصدى إلى كياناتهم وأسماعهم ليطفئ جذوة مرارتهم وآلامهم، فقد لقوا من دنياهم نصبا، واغتذت أرواحهم قلقا، وصار الشعر هو زاد رحلتهم الأبدية يطعمونه، ولا يقتاتون سواه، وصاروا لا يجفلون عن إتيان تلك القصائد، ولا يرتضون بغيرها بدلا، فغدا ستحمل الأرض أثقال الهموم التي أنقضت ظهورهم في دنياهم، وسيحملها من سيجئ بعدهم، وغدًا ينكأ الحاضر جرح أمانيهم التي تثغب دمًا، وتتقيأ صديدًا، وسيغرد طائر أحلامهم في سربٍ بعيدٍ، ولن يحط على أكتافهم المثقلة بالأوجاع،

ولن يُرَجِّعوا بعد الحين آهاتهم، ولن ينعوا أحلامهم، فعندما يؤذن العمر بالرحيل تكون سنونهم العجاف قد اخضوضرت، وأينعت أحلامهم وأمانيهم وآتت أكلها، فهم سينفلتون من أسر الأرض إلى السرمدية ومسارب النور اللانهائي الممتد.

إن تلك التجربة المغايرة قد استنهضت في ذواتهم الشفافة الخلاقة شعورًا أرهف بمفردات الحياة وبطاقة الأشياء من حولهم، وكشفت بدورها حُجُبَ الحقيقة القابعة خلف زخرفها، فَحَلَّقُوا في مداراتٍ إيجابيةٍ.

ولعل شعور الاغتراب الحاد الذي عانى منه أولئك الراحلون قد آن له أن يتبدد، فغدًا سَيُوَسِّدون أجسادهم في مهادٍ أبديٍّ، وستنفتح طاقات الضياء اللامتناهية، وستتحول مدارات السلب إلى مساراتٍ من الإيجاب والضياء.

عينة البحث:

ستنصرف تلك القراءة إلى درس قصيدة **(عبد المعين الملوحي يرثي نفسه)**، بوصفها واحدةً من أبرز قصائد رثاء النفس في الشعر العربي المعاصر، فهي لم تحظ –إلى وقتنا هذا– بدراسةٍ أكاديمية، فعندما شرع نجم حياة (الملوحي) بالأفول بعد مرضه العضال الذي أشرف به على الموت، نسج قصيدته موضوع الدرس لتكون كلمته الأخيرة الشاهدة على انحدار حال أمتنا، وتورط أولئك العرب في الهزيمة التي مُنِيَتْ بها شعوبهم. فلطالما عرجت نفسه في مدارات الرفض والتنديد بخيبات العرب في الذود عن قضاياها.

وقد قُسِّم البحث إلى مقدمةٍ، وتمهيدٍ عرضت فيه أهم المصطلحات التي دارت القراءة في فلكها، وهي: (الموت/ الاحتضار/ الرثاء)، وخمسة مباحث، تناول أولاهم تحليل القصيدة موضوع الدرس (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) من ناحية المؤثرات والأبعاد، وانصرف المبحث الثاني إلى درس تلك المرثية في ضوء السياق الآزم الذي أفرزها، وبَحَثَ الثالث تجليات الماضي، واهتمَّ الرابع بعرض ثنائية (الأنا/ الآخر)، وناقش أخراهم بعض الملامح الأسلوبية والتصويرية

للقصيدة موضوع الدرس، وقد ذيلته بملخصٍ يحوي أهم النتائج التي توصلت إليها القراءة، وقائمةٍ بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

أهمية البحث:

تعود أهمية تلك القصيدة موضوع الدرس إلى ذلك السياق النفسي الآزم الذي أفرزها، فقد دفع بمؤلفها (عبد المعين الملوحي) إلى نظم قصيدةٍ طويلةٍ بديعةٍ في رثاء نفسه في غضون تجربة مرضه العضال، وقد اتكأ (الملوحي) على فن (الرثاء) في نتاجه الشعري بعامةٍ، و ضرب فيه بسهمٍ وافرٍ، فضلًا عن شهرته في مجالات عدةٍ، نحو: التحقيق، والترجمة، والتأليف.

مصطلحات البحث:

تدور القراءة في فلك ثلاثة مصطلحاتٍ رئيسةٍ هي: الموت، والاحتضار، والرثاء.

أسئلة البحث:

يتغيا البحث أن يقف على مقارباتٍ فكريةٍ لجملةٍ من المحاور، ولعل من أبرزها:

- هل استطاع (عبد المعين الملوحي) أن ينتصر بإبداعه على الموت، أم أن الموت هو الذي قلب له ظهر المجن، وانتصر عليه، وأثبت خوار عمله وبوار آلته؟
- هل انفتحت به التجرِبة على تغيير تلك الدلالات القارة للدوال المنتجة في قصائده قبل ولوجه في ثنايا أزمته؟
- وهل قطعت تجرِبة الملوحي في مرثيته لنفسه عُرى الوشائج بينها وبين تلك الدوال التراثية؟
- وهل أَنْتَجَتْ المرثية خطابًا شعريًّا مترعًا بدوالٍ سلبيةٍ؟
- هل حرص (عبد المعين الملوحي) على المواءمة في أبيات قصيدته بين رؤاه، وتلك الأنظمة السياسية المختلفة التي يقبع تحت مظلة أسرها؟

- هل انتظمت تلك الدوال التي وظَّفها في مرثيته في سلكٍ شعوريٍّ واحدٍ، أم تغايرت من آنٍ لآخرٍ في قصائده؟
- أي الصور الشعرية كانت أكثر دورانًا وإلحاحًا في بنية مرثيته لنفسه، وإلى أي المجالات الدلالية تنتمي تلك الصور؟
- هل شَكَّلَت تلك المرثية قطيعةً أبستمولوجيةً مع معتقداته السابقة، أم مثَّلتْ امتدادًا لها؟
- هل حَمَلَتْ مرثية (الملوحي) في تلك التجرِبة بذور الصوفية، وانعتقت من إسار المادية والحرص على مفردات تلك الحياة الأرضية؟
- كيف استطاع (عبد المعين الملوحي) في حضور شعور الموت والاستلاب العميق المتجذر في نفسه الذي اقتلعه من التمتع بملاذ الحياة ومباهجها أن يبدع مرثيةً مترعةً تارةً بالحماسة والقوة والإيمان الكامل برسالته التي لن تنقضي، وتارةً أخرى بالهزيمة واليأس والاستلاب ومرارة الرحيل؟
- هل مثَّل الموتُ في قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) انطلاقةً من آفاق السلب ودوائر التوتر إلى فضاءات الراحة والسكون والديمومة؟
- وهل اهتز عرش إبداعه الذي خلَّفه قبل ولوجه في غمار تجربة المرض العضال والاقتراب من عتبات الموت؟
- وهل أفضت به التجرِبة إلى متاهات السلب والفناء والوساوس لتتحول قلاعه الشعرية العنيدة إلى أكواخٍ هشةٍ قوامها اليأس والريبة والسوداوية؟
- وهل انسحقت سبحاته وتهويماته الفنية التي تموج في خيالات الشهرة تحت براثن الاحتضار؟
- هل شَكَّل الموت في فلسفته وكيانه قوةً غاشمةً قاهرةً وأصفادًا، أم حياةً جديدةً تنقشع فيها غيابات الماضي وعذاباته؟
- هل زَمَّ الموت حبل أفكاره، أم أرخى لها أعنَّة الإبداع؟

- هل مَثَّلَت تجرِبة الموت في شعر (عبد المعين الملوحي) ألقًا وزخمًا وحضورًا كثيفًا لافتًا مثيرًا عن تلك الكتابات التي دُوِّنت دون خوض غمارها؟
- هل استطاعت تلك المرثية التي عالجت تجربة الموت قبيل رحيل (الملوحي) أن تُظْهِر تلك الجوانب المكمونة المطمورة في فلسفته ورؤيته لثنائية (الحياة/ الموت)؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة لتستبين معالم فنية (عبد المعين الملوحي) في مرثيته.

الدراسات السابقة(١):

لم تخضع القصيدة موضوع الدرس –فيما بين يديَّ من مصادر– لأية دراسةٍ أكاديميةٍ، وقد انصرف غير ناقدٍ للتعريف بها وبمؤلِّفها، ولعل من بينهم:

- ناظم مهنا، عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٠م.
- محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود (عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين)، ط دار الإرشاد للنشر، ط ٢٠٠٧م.
- إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة: عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مقال بمجلة الثقافة– مدحة عكاش، سوريا، العدد (٣) بتاريخ (ا) مارس ١٩٩٧م.
- شاهر أحمد نصر، عبد المعين الملوحي أمير شعراء الرثاء، ط دار الكنوز الأدبية، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٦م.
- عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، ط دار الحضارة الجديدة، بيروت– لبنان، ١٩٩٢م.

منهج البحث:

وقد اعتمدت القراءة المنهج الوصفي التحليلي.

(١) مرتبة تاريخيًّا من الأحدث للأقدم.

تمهيد:

ويجدر بالقراءة قبل أن تنهض بالتحليل أن تُعَرِّج على تعريف مصطلحاتها تعريفًا لغويًّا، وتسبر أغوار بعضها في محضنها الفلسفي.

أولا: الموت:

١ – الموت لغةً:

ذكر صاحب (كتاب العين) في مادة (موت) أن (الموت: ميِّتٌ. في الأصل مَوْيِتٌ مثل سيِّد وسَوْيِد، فأدغمت الواو في الياء وثُقِّلَت الياء، وقيل: مَيْوِت وسَيْوِد.ويخفف، فيقال: مَيْت.والميتة في البروالبحر: ما لا تُدْرَك ذَكاته. والمِيتَةُ: الموت بعينه، ويقال: مات ميتة سوءٍ. والمَوْتَةُ: الجُنُون. ومؤتة: موضع. ويقال: وقع في المال المَوْتَان، وهو الموت في النَّعَم والمواشي. ومَوْتَان الأرض: التي لم تُحْي بعد. وأمات الرجل، إذا مات له إنسان، فهو مُمِيتٌ. ورجلٌ مَوْتَان الفؤاد: غير ذَكيٍّ ولا فَهِيمٍ.

ورجلٌ يبيع الْمَوْتَان، أي يبيع غير ذي رُوحٍ) [١]

وجاء عن الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في (أساس البلاغة) في مادة (مَوْت): (مَات مَوْتَةً لم يمتها أحدٌ. ومَات ميتة سوءٍ، وأَمَاتَه اللهُ، وهو مَيِّتٌ ومَيْتٌ، وهم مَوْتَى وأَمْوَات ومَيِّتُون) [٢]

وقد ذكر الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) في القاموس المحيط (مَات يَمُوتُ ويمَات ويَميتُ، فهو مَيْتٌ ومَيِّتٌ: ضد حَيّ. ومَات: سكن، ونام، وبلي،

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)، كتاب العين، تحقيق مهي المخزومي، وإبراهيم السامرائي: ٨/ ١٤٠.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت ٥٣٨ هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٨م: ٢٣١.

أو الميْت، مُخَفَّفَة: الذي مَات، والمَيْتُ والمَائت: الذي لم يَمُت بعد، ج: أمْواتٌ وموْتى وميِّتون ميْتون، وهي مَيِّتَةٌ وميْتةٌ وميِّتٌ) [١]

٢- الموت اصطلاحًا:

جاء عن الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) في (كتاب التعريفات) أن الموت هو (صفةٌ وجوديةٌ خُلِقَت ضدًّا للحياة. وباصطلاح أهل الحق: قمع هوى النفس، فمن مات عن هواه فقد حيي بهداه. الموت الأحمر: مخالفة النفس. الموت الأبيض: الجوع، لأنه يُنَوِّر الباطن، ويبيض وجه القلب، فمن ماتت بطنته حَيَت فطنته. الموت الأخضر: لبس المرقَّع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها، لاخضرار عيشته بالقناعة. الموت الأسود: هو احتمال أذى الخلق، وهو الفناء بالله لشهود الأذى منه برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه) [٢]

وقد ذكر أبو البقاء الكفوي (١٠٩٤ هـ) في مؤلفه (الكُلِّيات) في مادة (الموت) تعريفه بأنه (ضد الحياة لغةً. والأولى في التعريف عدم الحياة عما وجد فيه الحياة لئلا ينتقض بالجنين. وفي "شرح المقاصد": زوال الحياة، ومعنى زوال الحياة عدمها عما يتصف بالفعل. وهذا معنى ما قيل إنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة. وهو في الحقيقة جسمٌ على صورة الكبش، كما أن الحياة جسمٌ على صورة الفَرَس، وأما المعنى القائم بالبدن عند مفارقة الروح إنما هو أثره، فتسميته بالموت من باب المجاز) [٣]

---

(١) الفيرززآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، القاموس المحيط، ط دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٨م: ١٥٦٢

(٢) الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين (ت ٨١٦ هـ)، كتاب التعريفات، ط دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١ ١٩٨٣م: ٢٣٥

(٣) أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤ هـ)، الكليات (معجم في لمصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، ط٢ ١٩٩٨م: ٨٥٧

وقد ذكر التهانوي (ت بعد ١١٥٨ هـ) في كشافه معنى الموت، فقال: (هو تعطل القوى عن أفعاله لبطلان آلتها، وهي الحرارة الغريزية بالانطفاء. وقيل: هو ترك النفس استعمال الجسد، ثم الموت على نوعين: أحدهما الموت الطبعي، ويقال له أيضًا الموت الافترائي، والأجل المسمَّى، وهوعند الفلاسفة انقضاء الرطوبة الغريزية) [١]

وعرَّف جي. سي. كوبر الموت بأنه (الجانب غير المرئي من الحياة، والمعرفة غير المحدودة، نظرًا لأن الموتى يرون كل شيء، والموت في الحياة الأرضية يسبق الميلاد الروحي الجديد، والإنسان في البدء يجتاز ظلمة الموت قبل الميلاد من جديد والبعث والاكتمال والتوحد مرة أخرى. ويعني الموت – أيضًا– التغير من إحدى حالات الكينونة إلى حالةٍ أخرى، وتوحد الجسد مع الأرض، والنفس مع الروح) [٢]

وجاء في (المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة) أن الموت (هو عدم الحياة عمَّا من شأنه يكون حيًّا. وقيل: عمَّا اتصف بها، أو هو تعطل القوى عن أفعالها، وترك النفس استعمال الجسد. والموت كيفيةٌ وجوديةٌ لا يتصور إلا فيما له وجود، وهو أنواعٌ: طبيعي، واختراميِ، والطبيعي يقال له الأجل المسمَّى، وهو انقضاء الحياة بالأسباب اللازمة الضرورية، ويختلف في الأشخاص باختلاف الأمزجة، فقيل: إن صاحب المزاج الدموي أطول عمرًا من الصفراوي، والبلغمي من السوداوي، والموت الاختراميِ هو انطفاء الحياة لا للأسباب الضرورية، بل بعارضٍ، كقتلٍ أو غيره. والموت من المواقف النهائية التي يصطدم بها الإنسان،

(١) التهانوي، محمد بن علي (ت ١١٥٨ هـ)، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٦م: ٢/ ١٦٦٨.

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة– مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٦٣

وهو يخبر الفناء كحدٍ لوجوده، والموت واحدٌ من أفجع حدوده، وهو أكبر مصدرٍ لقلقه وهلعه، ولكنه يسمو بروحه، لأنه يلح عليه أن يعيش الحياة في أصالةٍ) [١]

وقد أورد (جلال الدين السعيد) مصطلح (الموت) في (معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية)، فقال: (الموت حَدَثٌ بيولوجيٌّ حتميٌّ، يمكن تقديمه أو تأخيره، لكن لا يمكن تجنبه، ورغم أن معرفة آليات الموت هي من مشمولات علم البيولوجيا، إلا أنَّ الفلسفة قد أولته أهميةً عظمى بوصفه الأساس الأول والمقولة الرئيسة للحياة الشعورية، وهو يُعاش دائمًا بوصفه قادمًا، لا بوصفه حاضرًا، وبوصفه نفيًا لفعل الحياة ذاته، أي نفيًا للشعور بما هو شعور. وهذا النفي لحياة هو مصدر أشد قلق تعرفه الحياة، مما ولَّد العديد من ردود الفعل الدفاعية، كالخرافات والأساطير الدينية، والطقوس الجنائزية، إلخ) [٢]

وقد ذكر (جميل صليبا) في (المعجم الفلسفي) مفهوم الموت، فقال: (الموت عدم الحياة عمَّا من شأنه أن يكون حيًّا، وقيل: الموت نهاية الحياة، وضد الحياة. والتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكة. وقد يُطلَق الموت ويُراد به ما يقابل العقل والإيمان، أو ما يضعف الطبيعة، ولا يلائمها كالخوف والحزن، أو الأحوال الشاقة كالفقر، والذل، والهرم، والمعصية. والموت عند الصوفية هو الحجاب عن أنوار المكاشفات والتجلي) [٣]

(١) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط مكتبة مدبولي، ط٣ القاهرة– مصر: ٨٥١

(٢) جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس: ٤٥٣

(٣) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ١٩٨٢م: ٤٤٠.

وقد جاء في (المعجم الفلسفي) أن الموت هو (انقطاعٌ كليٌّ. وفي الأساطير اليونانية "النوم" هو أخ الموت، وهما متماثلان في الهيئة ويعيشان معًا) (١)

وقد عرَّف (مصطفى حسيبة) الموت في (المعجم الفلسفي) بقوله: (الموت هو حالة توقف الكائنات الحية نهائيًّا عن النمو والاستقلاب والنشاطات الوظيفية الحيوية) (٢)

ثانيا: الاحتضار:

١- الاحتضار لغةً:

جاء في القاموس المحيط (احتُضِر، بالضم، أي: حضره الموت) (٣).

وقد ذكر أبو البقاء أيوب (ت ١٠٩٤ هـ) في (الكليات) أن الاحتضار (من احتضر الرجل مبنيًّا للمجهول إذا جعل حاضرًا، فكأن الرجل في حال صحته بدورانه إلى حيث شاء، كالغائب، فإذا مرض وعجز عن الدوران حيث شاء صار كالحاضر عند بواب السلطان، وهو ملك الموت، فيمسكه ويدخله إلى السلطان) (٤)

---

(١) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ط دار قباء الحديثة، القاهرة- مصر: ٦٣٠

(٢) مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط ١ ٢٠٠٩م: ٦٠٩

(٣) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت ٥٣٨ هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١ ١٩٩٨م: ٢٣١.

(٤) أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤ هـ)، الكليات (معجم في لمصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، ط٢ ١٩٩٨م: ٥٧

٢- الاحتضار اصطلاحًا:

يقول أرنولد توينبي: (الاحتضار إذا كان عملية، فإن الموت حدث) [١]

ثالثًا: الرثاء:

١- الرثاء لغةً:

جاء في (كتاب العين) مادة (رثي): (رثى فلانٌ فلانًا يرثيه رثيًا ومرثيةً، أي: يبكيه ويمدحه، والاسم: المرثية. ولا يرثي فلانٌ لفلانٍ، أي: لا يتوجع إذا وَقَع في مكروهٍ، وإنه ليرثي لفلانٍ مرثيةً ورثيًا. والمُتَرَثِّي: المتوجّع المفجوع) [٢]

وقد ورد عن الجوهري (ت ٣٩٨ هـ) في (الصحاح) في مادة (رثا): (رثيتُ الميت مرثيةً، ورثوته أيضًا: إذا بكيتُهُ وعددتُ محاسنه، وكذلك إذا نظمتَ فيه شعرًا) [٣]

وذكر الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) صاحب القاموس المحيط في مادة (رثي) (رثيت الميت رثيًا ورثايةً، بكسرهما، ومرثاةً ومرثيةً، مخففة، ورثوته: بكيته، وعددت محاسنه، كرثيته ترثيةً، ونَظَمْتُ فيه شعرًا، و-حديثًا عنه أرثي رثايةً: ذكرته، وحفظته. ورجل أرثى: لا يبرم أمرًا. ورثى له: رَحِمَه، وَرَقَّ له. وامرأةٌ رثاءةٌ ورثايةٌ: نوَّاحةٌ) [٤]

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان، ط المركز القومي للترجمة، مصر، ط١ ٢٠١١م: ٥٣

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥ هـ)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي: ٨/ ٢٣٤.

(٣) الجوهري، أبونصر إسماعيل بن حمَّاد (ت ٣٩٨ هـ)، الصحاح، ط دار الحديث، القاهرة- مصر، ٢٠٠٩م: ٤٢٥

(٤) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط: ٦١٩

٢- الرثاء اصطلاحًا:

وقد ذهب ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) في (العمدة) إلى أنه (ليس بين الرثاء والمدح فرقٌ، إلا أن يُخلط بالرثاء شيءٌ يدل على أن المقصود به ميت، مثل: "كان"، أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا. وليُعْلَم أنه ميتٌ. وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بيِّن الحسرة، مخلوطًا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكًا، أو رئيسًا كبيرًا) [١]

يقول (مصطفى صادق الرافعي): (الشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء، فيقضي الشاعر بقوله حقوقًا سلفت، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فُجِع ببعض أهله، أمَّا أن يقال على الرغبة فلا، لأن العرب التزموا في ذلك مذهبًا واحدًا، وهو ذِكْر ما يدل على أن الميت قد مات، فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام، ثم يذكرون صفات المدح مبللةً بالدموع) [٢]

(١) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل، ط٥ ١٩٨١م: ٢/ ١٤٠.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ط دار الكتاب العربي: ٣/ ٧٢.

المبحث الأول

قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه): المؤثرات والأبعاد

تنصرف القراءة إلى درس قصيدة واحدٍ من أبرز أعلام العربية في العصر الحديث، ألا وهو الأستاذ **عبد المعين الملوحي**[١] (١٩١٧م- ٢٠٠٦م) السوري الأصل، وهو شاعرٌ، وأديبٌ[٢]، ومعلمٌ للعربية، ومترجمٌ[٣]، ومحققٌ[١] ، سوري

(١) ترجمته في: ناظم مهنا، عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٠م.محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود (عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين)، ط دار الإرشاد للنشر، ط ٢٠٠٧م. إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة: عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مقال بمجلة الثقافة- مدحة عكاش، سوريا، العدد (٣) بتاريخ (ا) مارس ١٩٩٧م. شاهر أحمد نصر، عبد المعين الملوحي أمير شعراء الرثاء، ط دار الكنوز الأدبية، بيروت- لبنان، ط١ ١٩٩٦م. عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، ط دار الحضارة الجديدة، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.

(٢) ومن أعماله في حقل التأليف:

المنصفات، وقصيدتان، وثلج على قبر، والفكر العلمي عند ياقوت الحموي، وأشعار النصوص وأخبارهم،وطعم التخمة وطعم الجوع، ونجوى حجر، والحرب والحب، والأدب في خدمة المجتمع، وفهرسة الأغاني، ونظم اللآلئ في الحكم والأمثال، والشعراء الذين رثوا أنفسهم، ومواقف إنسانية في الشعر العربي، وأشعار اللصوص وأخبارهم، والإنسان ذلك المظلوم، وديوان في قصيدة، وأرجوزة الأحفاد، ومن أيام فرنسة في سورية، والحب بين المسلمين والنصارى، ودفاع عن المعري، وشظايا من عمري، ومراثي الآباء والأمهات للبنين والبنات، ودفاع عن اللغة العربية والتراث، وثلاث شخصيات طريفة في الإسلام، ومن كنوز العرب، ونجوى حمص، ومن وحي الصين، والطير والحمام في الأدب العربي، وفي بلدي الحبيب والصغير حمص

(٣) ومن بين أعماله في حقل الترجمة:

ذكريات حياتي الأدبية، والمتشردون لمكسيم غوركي، وفي سردابي لدوستوفسكي، وتاريخ الشعب الصيني المعاصر لغويللرماز، واغستان بلدي لرسول حمزاتوف، ورلات في ألمانيا لهنري هايني، والأنفس الميتة لغوغول.

الأصل من مدينة حمص، وكان عضوًا بارزًا في جملةٍ من المراكز الثقافية، وهو عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وله شعرٌ بليغٌ في الرثاء، حاز وسام الصداقة من جمهورية فيتنام، وله جملةٌ من المؤلفات والترجمات تربو على المئة[٢]

ولعل قصيدة **(عبد المعين الملوحي يرثي نفسه)** هي واحدةٌ من عيون قصائد رثاء الذات في الشعر العربي الحديث، يقول سراج الدين محمد: (أما في العصر الحديث، فقد رثى الشعراء الإنسانيةَ بشكلٍ عامٍّ، ورثوا أنفسهم بشكلٍ خاصٍّ، وغاصوا في وجدانياتهم وتأملاتهم. رثوا العروبةَ، ورثوا الأخلاق بالإضافة إلى رثاء الأحبة) [٣]

وقد رثى بها الملوحي نفسه حين اقترب من عتبات الموت، فقد أصيب بجلطةٍ دماغيةٍ وشلل في الشق الأيسر ألزمه العكاز، وقد عانى من مرضه العضال لسنواتٍ ليقف بنا على تلك الملامح المائزة لشعرية الاحتضار، فالتفكير في الموت يختلف في عقل المرء عندما يلج دوائر الغياب بأزمةٍ صحيةٍ طاحنةٍ، يقول توينبي: (من المناسب أن نتصور مواجهة الموت على أنها مجرد مواجهة حقيقة الموت الوشيك، بل على أنها مواجهة عملية الاحتضار) [٤] فالملوحي كان

=

(١) ومن بين أعماله في حقل التحقيق:

ديوان ديك الجن الحمصي، واللاميتان: لامية العرب ولامية العجم، وتحفة المجاهدين في العمل بالميادين، وفي علم الفروسية، والتنبيه على حدوث التصحيف، والحماسة الشجرية، والأزهية في علم الحروف، والحيوان، ومن غاب عنه المطرب، وديوان عروة بن الورد.

(٢) محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود (عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين)، ط دار الإرشاد للنشر، حمص– سوريا ط ٢٠٠٧م: ٥١

(٣) سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، ط دار الراتب الجامعية، بيروت– لبنان:٦

(٤) إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة:عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش، العدد ٣ امارس ١٩٩٧م: ١٧

يقف مليًّا على أعتاب الموت بعد معاناته الطويلة مع المرض. وقد أبدع مرثيةً بالغة الرهافة.

يقول إلياس قطريب: (الحديث عن هذه القصيدة يطول، ففيها متسعٌ للقول، ومجالٌ للكتابة، ولم تكن وقفتنا القصيرة تلك إلا نافذة أردنا من خلالها أن نُطِلَّ باستحياءٍ على عالم هذه القصيدة. وهي وقفةٌ تفتقر إلى جمال العرض، وعمق التحليل، وبراعةٍ في التفسير والتأويل، والقصيدة تحتاج إلى مَن يقوم بدراستها دراسةً أدبيةً نقديَّةً، يتناول جوانبها الفنية والجمالية، ويكشف عن أبعادها الفكرية، والنفسية، والاجتماعية) [١]

وقد انصرف الملوحي إلى الوقوف على عتبات الاحتضار، وفحْص حدث الموت من منظور (**الموت الفيزيائي**) الذي تُفَارق فيه الروح الجسد إلى مثواها الأخير.

لقد تساوق حجم إبداع (عبد المعين الملوحي) مع مقدار معاناته في غضون تجربته، ففاضت قريحته بيائيته التي وقَعَت في (١٦٧) مئة وسبعة وستين بيتًا، وقد اتسمت بالنَّفَس الشعري الطويل الذي لم يُخِلّ بفنيتها وسبكها وجودة معانيها، يقول إلياس قطريب: (وطُول القصيدة يكشف عن شاعريةٍ ثرةٍ، وتَمَكُّنٍ من اللغة، ونَفَسٍ شعريّ متميزٍ، كما أن هذا الطول لم يؤثر في بنائها الفني، فلا يكاد المرء يعثر على بيتٍ مهلهل النسج، أو ركيك النظم، فقد جاءت القصيدة ضمن بناءٍ فنيٍّ متماسكٍ، ورباطٍ نفسيٍّ جمَع بين أبياتها في تلاحمٍ عضويٍّ محكمٍ) [٢]

(١) إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة:عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش، العدد ٣ امارس ١٩٩٧م: ١٧

(٢) إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة:عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش، العدد ٣ امارس ١٩٩٧م: ١٥

وقد عارض بها يائية (مالك بن الريب) [١] التي يقول في مطلعها:[٢]

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا أُزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا[٣]

يقول اليزيدي في الأمالي: (حدثني محمد بن الحسن الأحول قال: سمعت المدائني يقول: رثى مالك بن الريب نفسه بقصيدته هذه قبل موته بسنةٍ) [٤]

والسؤال الذي يطرح في هذا السياق:

هل كان الموت عنصرًا ملحًّا متواترًا في وجدان الملوحي وكيانه قبل ولوجه تلك التجربة؟

لقد عُنِي الملوحي بفكرة الموت عنايةً بالغةً قبل ولوجه دوائر الموت والغياب، وأوقف جلَّ شعره عليه، فلم يكن غريبًا أن يبدع قصيدته في رثاء نفسه، إذ يقول[٥]:

إِذَا كَانَ شِعْرِي كُلّ شِعْرِي مَرَاثِيًا فَمَا لِي بِنَفْسِي لَا أَعدُّ رِثَائِيَا

وَنَفْسِيَ أَوْلَى أَنْ تَكُونَ قَصِيدَةً تَسِيلُ قَوَافِيهَا نَشَاوَى دَوَامِيَا

ولم يمتح الملوحي شاعريته وفنيته في غضون تلك التجربة الفنية من بئرٍ بدئ، فقد سبقه جملةٌ من الشعراء القدامى الذين عنوا بالموت ورثوا أنفسهم، وقد أتى على ذكرهم في مؤلَّفه الذي دفع به إلى المكتبة العربية بعد الفراغ من نسج

(١) وردت القصيدة في جمهرة أشعار العرب، للقرشي، تحقيق علي محمد البجادي، ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع: ٦٠٧

(٢) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق– مصر، ط١ ١٣٢٤ هـ: ١٣٧

(٣) اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (ت ٣١٠هـ)، كتاب الأمالي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن– الهند، ط١ ١٩٤٨م: ٣٩

(٤) اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (ت ٣١٠هـ)، كتاب الأمالي: ٤٤

(٥)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:8

قصيدته موضوع الدرس، ويحمل عنوان (الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت)، إذ يقول متحدثًا عن دواعي تأليفه القصيدة، ويليها الكتاب: (عندما كنتُ في الصين، وأصبتُ بجلطةٍ في الدماغ، وشللٍ في الشق الأيسر، وأشرفتُ على الموت، بدأت بقصيدتي في رثاء نفسي، وبعد عودتي إلى دمشق منَّ الله عليَّ بالشفاء، فأتممتُ القصيدة، وتكرَّم الأخ الأستاذ "مدحة عكاش"، صاحب مجلة الثقافة، فنشرها على حسابه الخاص عام ١٩٨٤م، وخلال سنوات مرضي، ثم شفائي –بحمد الله– زاد اهتمامي بالشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، وبدأت أجمع أشعارهم المتناثرة في بطون كتب التراث العربي) [١]

وقد أتى فيه على ذكر جملةٍ منهم، وهم: (يزيد بن خذاق، وبشر بن أبي خازم (ت نحو ٩٢ ق.هـ)، وطَرَفة بن العبد (ت ٦٠ ق. هـ)، وصريم بن معشر (ت نحو ٦٠ ق. هـ)، وعبد يغوث بن صلاءة (ت ٤٠ ق. هـ)، وقيس بن الحدادية، وخبيب بن عدي، وسحيم عبد بني الحسحاس (ت ٤٠هـ)، وهدبة بن خشرم (ت نحو ٥٠هـ)، ومالك بن الريب (ت نحو ٦٠ هـ)، ومرة بن محكان (ت ٧٠ هـ)، وجعفر بن علبة (ت ١٢٥هـ)، وأبو نُوَاس (ت ١٩٨ هـ)، وتميم بن جميل السدوسي (ت ٢٤٠ هـ)، والحلاج (ت ٣٠٩ هـ)، والطغرائي (ت٥١٣ هـ) [٢]

لقد شكلت تلك القصيدة حالةً من الاحتفاء البالغ بالرحيل، وكسرًا لتابوهاتٍ عتيقةٍ في العقل العربي، وطرقًا على أبواب (المسكوت عنه) في واقع مجتمعاتنا، ونهايةً لخيبة الآمال، وانقشاع غيمة الزيف، فقد منح اقترابُ الموت الشاعرَ

(١)عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، ط دار الحضارة الجديدة، بيروت– لبنان: ٥

(٢) عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت: ٦

إمكاناتٍ لم يخلقها الحضور، فالذات الشاعرة لن يكتب عليها الفناء والزوال بموتها، ولن تعدم الاتصال بعالمها الأرضي.

لقد تأثر (عبد المعين الملوحي) أيما تأثرٍ ببائية الأموي (مالك بن الريب)[١]، لِتُشَكِّل تلك البائية نصًّا سابقًا (Hypotexte)، وبائية الملوحي نصًّا لاحقًا (Hypertexte)، لقد استأهل (مالك بن الريب) أن يستدعيه الملوحي في مرثيته بوصفه مرآةً لذاته التي تقف قويةً شامخةً في مجابهة الموت والفناء، إذ يقول[٢]:

تَمَنَّيْتَ يَا بْنَ الرَّيْبِ لَوْ بِتَّ لَيْلَةً ... بِجنبِ الْغَضَا تُزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا
وأَمْنِيَتِي لَوْ بِتُّ فِي حِمْص لَيْلَةً ... فَأَسْبَحُ فِي الْعَاصِي وَأَلْقَى لِدَاتِيَا
كِلَانَا تَهَاوَى حُلْمُهُ، لَمْ تَرَ الْغَضَا ... وَلَا أَنَا فِي الميمَاسِ أُلْقِي رِحَالِيَا
أَمَانٍ أَضَلَّتْنَا طَوِيلًا وَأَقْلَعَتْ ... وَكَانَتْ أَضَالِيلُ الرِّجَالِ الأَمَانِيَا
سَرَابٌ يَغُرُّ الرَّكْب حَران صَادِيًا ... وَيَغْمُرُ بالمَاءِ الْغُرُورِ الصَّحَارِيَا

إن الملوحي يرغب في التزود من شعر سابقه (مالك بن الريب) بوصفه أداةً ناجعةً يجابة بها أزمته الطاحنة، فاقتفاء أثره يعد سبيلًا للنجاة من اليأس الذي قد يُطْبِق على أنفاسه في تلك التجربة القاسية.

ولعل ذلك الاستغراق في تجربة الاقتراب من الموت يجعل الذات الشاعرة في حالة تماسٍ بالغٍ مع أولئك الشعراء الماضين الذين عالجوا الموت في أشعارهم، بل يجعل نتاجهم أداةً بالغة التأثير في مجابهة الفناء، وسلاحًا فتاكًا

(١) هو مالك بن الرَّيب بن حوط بن قرط المازني التميمي (ت ٦٠ هـ)، شاعرٌ أمويٌّ، كان فاتكًا قاطعًا للطريق، أنبه سعيد بن عثمان بن عفَّان، وانضم إلى جيشه، فدخل خراسان، وتنسك، ومرض في (مرو)، ويقال إنه كان من أجمل العرب. جمع نوري حمودي القيس شعره. ترجمته في: الشعر والشعراء: ١/ ٣٤١. تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠٦. معجم الشعراء للمرزباني: ٣٦٤. سمط اللآلي: ١/ ٤١٩. شرح شواهد المغني: ٢/ ٦٣٢. خزانة الأدب: ٢/ ٢١٠. الأعلام: ٥/ ٢٦١. المرشد إلى فهم أشعار العرب: ٢/ ١٠٩.

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:8

يبدد قلقهم الذي استبد بهم، فلن تستحيل أبيات(مالك بن الريب) وغيره يدًا تواسيهم وتربت على أكتافهم، وهم مغلوبون على أمرهم يتجهزون للرحيل، بل ستنفث في روعهم جَرأةً وصمودًا، وستملأ صدورهم بعطر الحياة، وتدعوهم إلى الاغتراف من ملذاتها.

إن الوقوف على فنية الملوحي يقتضي درس يائيته، والوقوف على ملامح الالتقاء بينها وبين سابقتها، ولعل أوجه ذلك التنقيب عن الملامح والقسمات الشعرية يتجلى في محورين رئيسين:

أولًا: المناص:

يقدم (جيرار جينيت) تعريفًا للمناص، فيقول: (هو كل ما يجعل من النص كتابًا يقترح نفسه على قرائه أو بصفةٍ عامةٍ على جمهوره، فهو أكثر من جدارٍ ذي حدودٍ متماسكةٍ، نقصد به هنا تلك العتبة) [١] ولعل فحص تلك العتبات النصية سيفضي إلى حالة جلاءٍ ووضوحٍ في ذهن المتلقي. وستنصرف تلك الأسطر القليلة القادمة لفحص عتبتي: العنوان، والإهداء، وبيان دورهما الفاعل في إضاءة النص، وسبر أغواره.

١- العنوان الرئيس:

ذهب (لوي هويك) إلى أنَّ العنوان هو: (مجموعة العلامات اللسانية، من كلماتٍ وجملٍ، وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتُعَيِّنُه، تشير لمحتواه الكلي ولتجذب جمهوره المستهدف) [٢] لقد مَثَّلَ عنوان القصيدة علامةً أيقونيةً يتخيرها (الملوحي) بعنايةٍ للدلالة على فحوى نصه الذي تعلق فيه مع سابقه (مالك بن الريب)، يقول خالد حسين: (إن التناصية هي إحدى السمات

(١) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠٨م: ٤٤

(٢) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين:٦٧

الاستراتيجية لنصية العنوان، بل إن النصية ستفقد هويتها وأنطولوجيتها بفقدان البعد التناصي) [١]. إن ذلك العنوان هو المحطة الأولى الرئيسة لفحص ذلك الإبداع الأدبي، والوقوف على ملامحه وأبعاده ودلالاته.

يقول محمد بازي: (النَّاص (المنتِج) يدرك تمام الإدراك أن من شروط تداول الكتاب أو النص أن يكون له عنوانٌ، ولذلك فهو يحاور نصه، يؤول مقاصده الكلية، ثم يحولها إلى بنيةٍ مختصرةٍ ومختزلةٍ عبر التركيب وإعادة التركيب) [٢]فالملوحي في قصيدته يستحضر في عنوانها دالًّا علميًّا يؤطر لحالةٍ من الحضور والصمود والتحدي. يقول بسام قطوس: (لقد وقف دارسو وظائف العنوان على عددٍ كبيرٍ منها، فأشار بعضهم إلى وظيفة التعيين والإعلان عن المحتوى، أو إلى وظيفة التجنيس، أي تلك التي تكشف عن نمط النص أو جنسه أو نوعه، وثمة العنوان الغرضي تفريقًا له عن العنوان الفني) [٣]

إن استدعاء تفاصيل ذلك الدال العلمي في بنية العنوان يعلن عن غرضه وفحواه، ويوحي بالثبوت والمثابرة وتأكيد كينونة الذات الشاعرة، فهي تقف في وجه ذاك الموت الغشوم الذي يترقبها، إن تلك الذات التي ستنمحي عمّا قريب لن تتجرد من اسمها وكينونتها عندما يطَوِّف عليها شبح الموت. يقول محمد فكري الجزَّار: (كثيرًا ما كانت دلالية العمل هي ناتج تأويل عنوانه)[٤]، فتلك العلامة –

(١) خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ط دار التكوين: ١٦٣

(٢) محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، ط الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت– لبنان، ط منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠١١م: ٧

(٣) بسام موسى قطُّوس، سيمياء العنوان، ط وزارة الثقافةن عمان– الأردن، ط١ ٢٠٠١م: ٥١

(٤) محمد فكري الجزَّار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م: ١٩

العنوان– تخلع أردية الإيجاب على تلك الذات، فهي تقف عتيةً، وتضرب بجذورها في أعماق الترب مؤكدةً حضورها وقيمتها، فالشاعر لم يسلط الضوء على ذاك (الحدث) الجلل الذي يقف على أعتابه فحسب، وإنما صرف جلَّ عنايته إلى ذاته الثرة المفعمة وقدمها عليه بالقوة، فهي لا تعاني شعور الاحتباس والاستلاب في ظلال ذلك المتخيَّل (الموت)، فاستحضار ذلك العَلَم في رحاب مرثية الذات يفرض ظلالًا من القوة والصمود والتحدي أمام ذلك الجاثوم الغاشم الذي يتهددها.

٢– العناوين الداخلية:

وقد قسَّم الملوحي قصيدته في رثاء نفسه إلى جملةٍ من المقاطع حمل كلٌّ منها عنوانًا فرعيًّا واقعيًّا مناسبًا لفحواه، نحو: (لماذا أرثي نفسي، حياتي: الشباب، الكهولة، الشيخوخة، ماذا بعدي، أنا والشعوب، وصيتي، العطاء والحياة، تمنيات متواضعة، هموم شخصية، هموم قومية، خاتمة المطاف)، وجميعها يعبر عن مراحل حياته، ويُطّوِّف في رؤاه وأمانيه وعَلاقته بالآخر.

لقد تخير الشاعر (عبد المعين الملوحي) عشرة عناوين فرعية يوحي عددها بالتمام والاكتمال، يقول جي. سي. كوبر: (العَشْرَة رقم الكون، ونموذج الخلق، يحتوي العقد على كل الأرقام، ومن ثَمَّ كل الأشياء والاحتمالات، وهو الأساس ونقطة الرجوع لكل عمليات العد. إنه الرقم الجامع والشامل، والقانون والنظام، والسيادة والسلطان) [١] فالذات الشاعرة قد خاضت غمار الحياة، وأدت أدوارها المنوطة بها بكل ما أوتِيَت من قوةٍ، وضربت بسهمٍ وافرٍ في النجاح وذيوع الصيت، وأتمت رسالتها بنجاحٍ على الأصعدة: الشخصية، والعملية، والقومية.

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود: ٤٠٧

وأولى تلك العناوين الفرعية التي تطالع المتلقي هو (لماذا أرثي نفسي)، فالذات الشاعرة تفض مغاليق موضوع قصيدتها، وتأخذ بيد القارئ إلى المسارب الصحيحة لتفسير صنيعها وتأويل مرادها، فهي لا تتركه يقف وحيدًا في مجاهل تلك القراءة الشعرية دون أن تنير دربه.

وتتجلى مقاصد الذات الشاعرة في قصيدة رثائها في إيثارها لنفسها بقصيدةٍ في الرثاء التي ضربت فيه بسهمٍ وافرٍ، فهي تستأهل أن تخص نفسها بشيءٍ من الإبداع الفريد الذي يتمظهر في هيئة (قصيدة رثاءٍ للنفس)، إذ يقول(١):

إِذَا كَانَ شِعْرِي كُل شِعْرِي مَرَاثِيًا فَمَالي بِنَفْسِي لَا أعدُّ رِثَائيَا

وَنَفْسِيَ أوْلَى أنْ تَكُونَ قَصِيدَةً تَسِيلُ قَوَافِيهَا نَشَاوَى دَوَامِيَا

فشعر الملوحي طافحٌ بالرثاء، في دلالةٍ على تمكّن الأحزان من قلبه، وغلبة السوداوية على حياته. يقول أرنولد توينبي: (إن الإنسان المحتضِر لا يَسْهُل عليه الإيمان بالشفاء عندما يكون على وعي بالتدهور. وتميل واجهة الأمل غير المعقول إلى التصدع، وقد يلجأ إلى محاولاتٍ عديدةٍ للترقيع، غير أن هذا التظاهر سوف ينهار أحيانًا، أو يتخلى المريض عنه، وربما ظهرت التصدعات في صورة فتراتٍ من الخوف والتعاسة) (٢) وجميع تلك المقاطع يدور في ثلاثة أفلاكٍ، هي: السياق الآزم، والأنا والآخر، والوطن وقضاياه.

٣- الإهداء:

وقد صدَّر (عبد المعين الملوحي) قصيدته في رثاء نفسه بإهداءٍ إلى الشاعر (مالك بن الريب)، إذ يقول: إلى مالك بن الريب الذي رثى نفسه، وهو يموت في خراسان بعيدًا عن أهله وأرضه بقصيدته المشهورة(٣):

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة، سوريا، يونية ١٩٨٣:8

(٢) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٦٩

(٣) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق- مصر، ط١ ١٣٢٤ هـ: ١٣٧

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا أُزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا

وقد أورد بلعابد قول جيرار جينيت أن (للإهداء عامةً وظيفتين أساسيتين ستنسحبان بأكثر تفصيل على إهداء النسخة من الكتاب، وهي: الوظيفة الدلالية، والوظيفة التداولية) [١]، فقد عمد الملوحي إلى هذا الإهداء ليُقِيم وشائج الصلة بينه وبين سابقه، فكلاهما وجد نفسه محتضرًا بعيدًا عن وطنه، يقول شوقي ضيف: (وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبًا عن وطنه وديارِه، وينزل به الموت ولا يجد مفرًا من لقائه، وينظر حوله، فلا يجد أحدًا من أهله، فليس معه من سيشَيِّعه، ولا من سيحفر له لحده، ولا مَن سيبكيه ويندبه، ومِن خير مَن صور الألم لذلك مالك بن الريب) [٢] فلعل هذا التصدير يشير إلى تلك الروابط بينهما، ويفسر أبيات الملوحي في ظلالها.

ثانيًا: التناص:

إن يائية الملوحي تشكل تناصًا مع سابقتها لمالك بن الريب، والتناص Intretexttuality حسْب تعريف (معجم مصطلحات الأدب) هو (مصطلح صاغته الناقدة البلغارية الأصل "جوليا كريستيفا" لتُعَرِّف به الآثار المتبادلة بين النصوص وتفاعلها داخل نصٍّ معينٍ، على أساس أن كل نصٍّ يتضمن عناصر من نصوصٍ سابقةٍ مغايرةٍ يتمثلها ويحولها داخله بطرقٍ تعبيريةٍ متعددة) [٣]

ذهبت كاتي وايلز في (معجم الأسلوبيات) إلى وصف ماهيته بأنه (يمكن أن يحدد كأقوال/ نصوص في علاقتها مع أقوالٍ/ نصوصٍ أخرى. وهكذا، حتى

---

(١) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين: ٩٩

(٢) شوقي ضيف، الرثاء، ط٤ دار المعارف، مصر: ٣٠

(٣) فاروق شوشة، معجم مصطلحات الأدب، ط مجمع اللغة العربية، القاهرة– مصر، ٢٠٠٧م: ٤٩

داخل النص الواحد يمكن أن يكون، على الأصح، "حوارًا" مستمرًا بين نصٍّ معطى ونصوصٍ/ أقوالٍ أخرى توجد خارجه، أدبية كانت أو غير أدبية: سواء داخل فترة التأليف نفسها، أم في قرونٍ سابقةٍ) (١)

١- مستويات التناص العامة بين يائيتي: (مالك بن الريب)، و (عبد المعين الملوحي):

أ- الموضوع:

لقد نسج (مالك بن الريب) يائيته عندما استشعر دنو أجله، وهو غريبٌ في خراسان، فكانت دافعًا بالغ الأثر في اقتفاء (عبد المعين الملوحي) أثره، ونسجه قصيدته اليائية في رثاء نفسه على منوالها، فلقد راض الملوحي قصيدته لتسير في ركب قصيدة (مالك بن الريب)، ولكنه احتفظ –في الوقت نفسه– بقسماته الشعرية وملامحه الفنية وتجربته الفريدة في ذلك السياق النفسي، لتضحي مرثيته نسيجًا فريدًا في التكوين الفني والبناء، فقد حملت قصيدة (عبد المعين الملوحي) معالم شخصيته، وبدت متناسبةً في عناصرها وطرحها مع أبعاد زمانه وتجربته وشاعريته.

ب-الوزن والقافية:

نُسِجَتْ يائية: مالك بن الريب، ويائية الملوحي على وزن بحر الطويل، بقافية الياء المفتوحة التي تعبر تعبيرًا بليغًا عن تلك الزفرة الحارَّة التي تَخْرُج من أعماق الذات المكلومة، فتهدئ من روعها، وتحمل أثقالها، وتفرغ شحنتها الشعورية.

(١) كاتي وايلز، معجم الأسلوبيات، ترجمة خالد الأشهب، ط المنظمة العربية لترجمة، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠١٤م: ٣٨٩.

ج- محاور قصيدة رثاء النَّفْس:

تشترك معظم القصائد في جملةٍ من العناصر التي تعد محورًا رئيسًا في بنيتها، وقد التقت اليائيتان في محاور :

- **الأسى والحزن:**

استبد الحزن ب(مالك بن الريب) حين ذكر الموت الذي يترقبه في حاضره القريب، إذ يقول[1]

غَدَاةٍ غَدٍ، يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ إِذَا أَدْلَجُوا عنِّي، وَخُلِّفْتُ ثَاوِيَا

فراح يصف ماله الذي سيتقاسمه الوارثون، وكيف أصبح حال ممتلكاته التي خلفها، إذ يقول[2]

وَأَصْبَحَ مَالي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ لِغَيْرِي وَكَانَ المالُ بِالْأَمْسِ مَالِيَا

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتِ الرحَى رحَى المثل أوْ أَضْحَتْ (بِفلْجٍ) كَمَا هِيَا

أما الملوحي فانصرف في مرثيته إلى وصف حال الأهل والصحب والظواهر الطبيعية بعد وفاته مؤكدًا ثبات عاداتهم وطبائعهم بعد رحيله عن الدنيا، فلن تنقطع دورة حيواتهم، إذ يقول:

رُوَيْدَكِ يَا هُوجَ الرِّيَاحِ تَرَيَّثِي سَأَرْحَلُ وَالدُّنْيَا سَتَبْقَى كَمَا هِيَ

سَتَطْلُعُ بَعْدِي الشَّمْسُ حَمْرَاء تَزْدَهِي وَيَبْزغُ بَعْدِي الْبَدْرُ أَصْفَرَ وَانِيَا

وَبَعْدِي تَدُورُ الأَرْضُ لَمْ تَدْرِ مَنْ أَنَا وَتَشْدُو السَّوَاقِي فِي المرُوجِ الأَغَانِيَا

وَتهدرُ بِالموْجِ الْبِحَارُ غَوَاضِبًا وَتَمْرَحُ فِي الرَّوْضِ الطُّيُورُ رَوَاضِيَا

وَيَسْعَى إِلَى الصَّفِّ الصِّغَارُ عنَادِلًا وَيَزْحَفُ فِي السُّوقِ الْكِبَارُ أَفَاعِيَا

وَتَخطرُ فِي الدَّرْبِ الصَّبَايَا أَقَاحِيًا وَتَرْقُصُ فِي المرْجِ الأَقَاحِي غَوَانِيَا

(١) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر: ١٣٨

(٢) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر.: ١٣٨

وَأَبْقَى أَنَا وَحْدِي أُصَارِعُ فِي الدُّجَى كَتَائِبَ دُودٍ رَائِحَاتٍ غَوَادِيَا
تُمَزِّقُ أَشْلَائِي وَتَفْقَأُ أَعْيُنِي وَتَنْثُرُ فِي جَوْفِ التُّرَابِ رُفَاتِيَا

- **الوصية:**

تحرص الذات الشاعرة في لحظاتها الأخيرة على الدفع بوصيتها، علَّها تحمل السكينة إليها، ويُحْسِن إليها الآخر بها بعد موتها ، يقول مالك بن الريب[١]:

أَقُولُ لأَصْحَابِي ارْفَعُونِي، فَإِنَّهُ يَقَرُّ بِعَينِي أن سهيلٌ بَدَا لِيَا
فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الموْتُ، فَانْزِلَا بِرَابِيَةٍ، إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا
أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ، أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ وَلَا تعجلاني، قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا
وَقُومَا إِذَا مَا استل رُوحِي فَهَيئَا لِيَ السفْر والأكفَان، ثُمَّ ابْكِيَا لِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلَا تحسدَاني –بَارَكَ اللهُ فيكمَا– مِنَ الأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا
خُذَانِي فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا

ويهتم فيها مالكٌ بتفاصيل دفنه، فيدلي إلى أصحابه بجملةٍ من النصائح ليحظى بفراقٍ كريمٍ يليق به.

أما الملوحي فيدفع وصيته إلى المحيطين به، ولم يكشف عن ماهيتهم، وهو حريصٌ فيها على التسلح بآلاته وأدواته الإبداعية، فهي الملاذ والملجأ عندما يقع في براثن المرض العضال والسياق الآزم، إذ يقول[٢]:

أَلَا فَاجْعَلُوا الأَكْفَانَ أَوْرَاقَ دفْتَرِي وَنَعْشِي يَرَاعِي وَالْحنُوطَ مِدَادِيَا
ضَعُوا تَحْتَ رَأْسِي مَا كَتَبْتُ وِسَادَةً وَلَا تَجْعَلُوا الصَّخْرَ الأَصَمَّ وِسَادِيَا

(١) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر.: ١٣٨
(٢) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش: ١١

لَعَلِّـيَ فـي قَبْـرِي أُطَـالِعُ صَـفْحَةً فَـألمحُ فِـي تِلْـكَ الصَّـحَائفِ ذَاتِيَـا

لعل الذات الشاعرة قد تَبَلَّغت بالقليل من أيامها المتبقية في الحياة، وراحت تبث "الآخر" وصاياها، وتطاول بأحلامها فيها أعنة الإبداع، وإن لم تسعفها أيامها وأنفاسها، فلم تُطفئ تلك الأزمة أُوار حماستها، وما اسْتَعْدَت على طاقاتها المتفجرة بالحياة، ولم تغتل بسماتها، ولم يكتنف ذلك "الآخر" في كيانها مشاعر السلب والعداء والازدراء، ولم تنفصم عرى التواصل بينها وبين لاحقيها، فأولئك اللاحقون قد تخَلَّقُوا من رحم الحاضر الذي يعاني ويلاته الشاعر، وقد اتصلت أمشاجهم، وجمعت بينهم ماسةُ رحم الإبداع، وأفرزتهم الظروف العصيبة ذاتها.

إن انفلات الشاعر من مدارات الوعي والتماس مع حدود الموت، والولوج في دائرة الغياب يكون مصحوبًا برغبةٍ ملحةٍ في الاحتماء بقلاع اللغة والتدثر بنسيجها، فهي وحدها القادرة على هدهدة روحه، وإصلاح شروخ ذاته، فالكتابة بمقدورها رأب صدع الذات الراحلة، وجبر كسرها، وتزجية فراغها، وإحياء روحها.

وسوف تدفع الذات الشاعرة بوصيتها التي ستدحض بها الأباطيل التي التصقت بها طيلةحياتها، وسترى الكتابة وأدواتها هي خير رفيقٍ لها تأتنس به في وحشتها، وتتكئ عليه في قبرها، فلقد سال قلمها برائق ألفاظها، وصادق معانيها.

- **الفخر والاعتداد البالغ بالذات:**

ويتفق الاثنان –مالك بن الريب والملوحي– في الانسلاخ من الوصية إلى الفخر والاعتداد البالغ بالذات، يقول مالك بن الريب[1]:

وَقَـدْ كُنْـتُ عَطَّافًـا إِذَا الْخَيْـلُ أَدْبَـرَتْ سَرِيعًا إِلَـى الْهَيْجَا إِلَـى مَن دَعَانِيَا

وَقَـدْ كُنْـتُ مَحْمُـودًا لَـدَى الـزَّادِ وَالقِـرَى وَعَنْ شَتْمِيَ ابْن الْعَمِّ وَالْجَارِ وَانِيَا

(١) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر:: ١٣٨

وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا عَلَى الْقرْنِ فِي الْوَغَى ثَقِيلًا عَلَى الأَعْدَاءِ غَضْبًا لِسَانِيَا
وَطَوْرًا تَرَانِي فِي ظِلَالٍ وَمجمَعٍ وَطَوْرًا تَرَانِي وَالْعِتَاق رِكَابِيَا
وَطَوْرًا تَرَانِي فِي رَحًى مُسْتَدِيرَةٍ تُخَرِّقُ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ ثِيَابِيَا

فمالك يقدم جملةً من الصفات الإيجابية التي اتسم بها في حياته، نحو: الشجاعة، وحفظ الأعراض، والكرم، والسخاء، والحمل على الأعداء وتحمل الصعاب، ليقدم الملوحي للمتلقي حُزمةً من عناصر الإيجاب في شخصيته، فيقول(١):

وَكُنْتُ مِنَ الأَحْرَارِ إِنْ قِيلَ: مَنْ فَتًى؟ بَرَزْتُ وَدَوًّى كَالرُّعُودِ جَوَابِيَا

فالملوحي كان سبَّاقًا إلى المجد، فكان لا يتوانى عن نصرة الآخر ومؤازرته والوقوف بقوةٍ في وجه كل معتدٍ أثيم. إن الذات الشاعرة تحتاج في ذلك السياق العسر إلى استدعاء أمجادها الماضية ومآثرها لتقف في وجه ذلك الحدث الغاشم الذي يهدد أمنها وسكينتها.

٢- مستويات التناص الخاصة بين يائيتي: (مالك بن الريب)، و(الملوحي):

أ- المستوى اللفظي:

وردت جملةٌ من الألفاظ المشتركة بين يائيتي: مالك بن الريب، والملوحي، وقد بدت في محورين رئيسين، هما:

- **التعلق النصي في القوافي:**

استدعى الملوحي في يائيته جملةً من القوافي التي تردد ظهورها في يائية (مالك بن الريب)، نحو: (أمانيا/ ورائيا/ أماميا/ باكيا/ المواليا/ شاريا/ ماليا)، وقد زخرت قوافيه بوفرةٍ من الألفاظ التي تباينت عن سابقتها، وقد دلَّت على ذخيرته

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة، مدحت عكاش: ١٠

اللغوية، وقريحته الخصبة، وشاعريته المونقة، فالملوحي يحذو حذو سابقه (مالك بن الريب) في نسبةٍ ضئيلةٍ من قوافيه.

- **التعلق النصي في غير القوافي:**

عُنِي الملوحي بيائية سابقه (مالك بن الريب)، وحرص على التعلق النصي بها في غير موضعٍ بخلاف القافية، ومن بين أمثلتها الدَّالة:

يقول مالك بن الريب في مطلع يائيته:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

ويقول الملوحي[1] :

تَمَنَّيْتَ يَابْنَ الرَّيْبِ لَوْ بِتَّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا تُزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا

وَأَمْنِيَتِي لَوْ بِتُّ فِي حِمْصَ لَيْلَةً فَأَسْبَحُ فِي الْعَاصِي وَأَلْقَى لِدَاتِيَا

كِلَانَا تَهَاوَى حُلْمُهُ لَمْ تَرَ الْغَضَا وَلَا أَنَا فِي الميمَاسِ أَلْقِي رِحَالِيَا

فيائية الملوحي تتعلق نصيًّا بسابقتها في (بت في حمص ليلة)، فكلاهما يستدعي مفردةً (بت) بما توحيه من ظلال السكون، فالظلام يلف الكائنات، ويبعث في النفس السكينة. إن الملوحي يتوسع في مراده عن مالك بن الريب الذي آثر المبيت في جنب الغضا ليزجي القلاص النواجيا فحسب، ولكن الملوحي فضَّل السباحة في النهر، والتمتع بالطبيعة ولقاء الأحبة، دامجًا كل عناصر الوفرة المادية والمعنوية في أمنيته.

ويستدعي الملوحي كذلك (تذكرت من يبكي علي فلم أجد)، ليعقبها بآلاته وأدواته التي تتيح له البقاء والقوة والديمومة والثبات، فكلاهما قد استدعى ما تعلَّق بها في حياته، وأكدَّ به حضوره وكينونته.

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ٨

ولعل الملوحي قد آثر أن يتناص مع سابقه (مالك بن الريب) الذي رأى فيه (معادلًا موضوعيًّا) له في هذه الظروف العصيبة، فكلاهما قد احتمل مشاق الغربة، والاحتضار وحيدًا بعيدًا عن وطنه كما بينت آنفًا.

ب–المستوي السياقي:

يُعنى هذا المستوى بدرس جملةٍ من العناصر المشتركة بين القصيدتين على مستوى السياق، يقول محمود المقداد: (يتعلق هذا النوع من التناص برسم الشخصيات وتصوير الأماكن ووصف الأحداث والأجواء المحيطة والظروف القائمة) [١]

أولًا: الشخصيات:

- **الأصحاب:**

اتخذ الملوحي من الأصحاب موقفًا مطابقًا لموقف سابقه (مالك بن الريب) الذي يقول في يائيته[٢]:

تَـذَكَّرْتُ مَـنْ يَبْكِـي عَلَـيَّ فَلَـمْ أجِـدْ سِـوَى السَّـيْف، وَالـرُّمْح الرُّدَيْنِـي بَاكِيَـا

ويقول الملوحي[٣]:

تَـذَكَّرْتُ مَـنْ يَبْكِـي عَلَـيَّ فَلَـمْ أجِـدْ سِـوَى قَلَمِـي وَالطُّـرْس والحبـر باكيَـا

فالاثنـان يشـتركان فـي موقفهمـا مـن أولئـك الأصـحاب السـلبيين الـذين يشبعانهما غيابًا وتفنيدا، ويستعينان بآلاتهما فحسب في مجابهة الفراق الوشيك، والأسى الذي يعتصرهما، فالمادة تحل محل البشر في تغذية الروح، ودفع قوى السلب عنها.

(١) محمود المقداد، مستويات التناص بين (المقامة الأسدية)لبديع الزمان الهمذاني و (صفة الأسد) لأبي زُبَيْد الطائي، مجلة جامعة دمشق– المجلد ٢٩– العدد ((١+ ٢)– ٢٠١٣م: ٧٠

(٢) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر.: ١٣٧

(٣) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش: ١١

- **المرأة الثكلى:**

تبدو النماذج الأنثوية مثل الزوجة والأم والابنة والخالة مترعاتٍ بالحنان والوفاء، تنفطر قلوبهن من الألم والحسرة لفراق (مالك بن الريب)، إذ يقول(١):

وَبالرَّمْلِ مِنَّا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْنَنِي بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا

فَمِنْهُنَّ أمّي وَابْنَتَاهَا وَخَالَتِي وَباكِيَةٌ أُخْرَى تهِيجُ الْبَوَاكِيَا

ليبدو ذلك الكيان الأنثوي في مرثية الملوحي في هيئة (المرأة الثكلى) فحسب بعد موته تلك التي تضع زهرةً على قبره تعاطفًا منها، فقد عدم الملوحي زوجته (بهيرة) التي ماتت في ريعان شبابها، وابنته (ورود) التي ماتت في عمر الزهور. ومن ثمَّ، فإن الملوحي لم يتمتع في حياته بوفرة العناصر الأنثوية الصادقة الفياضة، فقد عانى مرارة غيابها الأليم بالموت، أما (مالك بن الريَّب) فهو الذي سبقهم إلى الحياة الأخروية ليخلفهن تعيساتٍ بائساتٍ بعد موته.

ثانيا: المكان:

- **المكان ومفتتح القصيدة:**

جعل (عبد المعين الملوحي) بيت (مالك بن الرَّيْب) مفتتحًا ونواةً مركزيةً لقصيدته، ينطلق فيها من فضاء (الذات/ الداخل) إلى فضاء (الوطن/ الخارج) مؤكدًا أهمية الشعور القومي في حماية الفرد من التزعزع في الأزمات التي تعصف بالكيان.

وقد بدأ عبد المعين الملوحي مرثيته مثل سابقه (مالك بن الريب) بذكر وطنه الحبيب والتأسي على عدم لقائه، فالذات تنطلق حينئذٍ من الخارج (الوطن) وتسعى إلى التنعم به لتحظى بالسعادة والاكتمال والتحقق، فالوطن هو الحُلم

(١) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر: ١٣٩

والغاية المنشودة. إن تلك الافتتاحية تؤطر بقوةٍ لحضور الوطن وقيمته في حياة الشاعر، إذ يقول(١):

تَمَنَّيْتَ يَابْنَ الرَّيْبِ لَوْ بِتّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا تُزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا
وَأَمْنِيَتِي لَوْ بِتُّ فِي حِمْصَ لَيْلَةً فَأَسْبَحُ فِي الْعَاصِي وَأَلْقَى لِدَاتِيَا
كِلَانَا تَهَاوَى حُلْمُهُ لَمْ تَرَ الْغَضَا وَلَا أَنَا فِي الميمَاسِ أُلْقِي رِحَالِيَا

إن الذات الشاعرة تفتتح نصها بلحظة تَفَجُّر مأساتها وتَشَظِّي ذاتها بين حلمها وواقعها لتعلن انتصار الألم والسلب والعدمية على مشهد النهاية لتضع المتلقي أمام مفارقةٍ بالغةٍ مع كنه هذي الحياة. إن تلك الحقيقة التي انطلق منها النص الشعري قد استدعت بدورها سرد جملةٍ من صور الماضي، واستدعاء تفاصيله لتمحيصها وسبر أغوارها.

- **المكان ومختتم القصيدة:**

يبدو مختتم القصيدتين اليائيتين متطابقًا لدى الشاعرين –مالك بن الريب والملوحي–، فكلاهما قد أكَّد الاعتزاز بأرضه وذكرياته فيها مع أحبائه ليكون هو النواة المركزية التي يدور النص في فلكها، ويضحي ما بين المفتتح والمختتم تجلياتٍ لصورة هذا الوطن الأم، يقول (مالك بن الرَّيْب)(٢):

وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنِّي وَأَهلِه ذَمِيمًا، وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَّعْتُ قَالِيَا

فهو حافظٌ لعهوده مع ترب أرضه، ويعود الملوحي لينهي قصيدته –هو الآخر– بحضورٍ بالغٍ ل(الوطن) لترتفع الذات حينها عن ترهات الحياة وأضاليل النفس ومواقف الآخر وأوجاع الماضي والذكرى وأنين الحاضر، فجميعها لا ينهض أمام قيمة (الوطن) وحضوره الفاعل في حياة الشاعر، يقول أرنولد

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

(٢) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر: ١٣٩

توينبي: (الحياة الأصيلة هي أن يقبل الإنسان نهايته، ويتجنب الهرب بناءً على ذلك من مسؤوليته من خلال الاستغراق في الهموم المفيدة) [١] فالوطن هو لب الحياة ونواتها المركزية، إذ يقول[٢]:

وَيَا وَادِيَ الْعَاصِي وَقَدْ كُنْتَ دَوْحَةً أُنَاغِي بِهَا الأَحْبَاب حُيِّيتَ وَادِيَا
لَئِنْ مَزَّقَتْ أَيْدِي السِّيَاسَةِ شَمْلَنَا فَمَا زَالَ قَلْبِي صَادِقَ الْوُدِّ صَافِيَا
سَأُودِعُ فِي أَحْجَارِكَ السُّودِ أَعْظُمِي فَلَا يَكُ مِثْل النَّاسِ صَخرك قَاسِيَا
فَإِنْ أَسْتَطِعْ فِي الْحَشْرِ آتِيكَ زَائِرًا وَلَوْ خَطَرَتْ حُورُ الْجِنَانِ أَمَامِيَا
وَلَوْ خَيَّرُونِي لَثُم ثَغْرِ حَبِيبَتِي وَلثم ثَرَى حِمْصِي لَثَمْتُ تُرَابِيَا

فلم تنطفئ جذوة حمَاسة الملوحي أمام شبح الموت، ولم تمت تطلعاته لتلك الربوع التي عاش بين جنباتها، فقضايا الوطن تشغل عقله وجدانه، ويناصرها بكل ما أوتي من قوةٍ، ويأخذ في الدفاع عن حقوقه، والذود عن حياضه والتنديد بأولئك الطغاة الغاشمين، ومحاربة الفاسدين، ويؤازر أولئك الثوار الذين انخرط معهم في عَلاقةٍ وطيدةٍ، فالوطن هو الوشيجة الوثقى التي تربط بينهم، وتجعل منهم كيانًا مترابطًا. ومن اللافت للنظر أن ذلك الحنين للوطن قد اتخذ كثافةً تعبيريةً في شعر الملوحي عن سابقه (مالك بن الرَّيْب)، وفاض بمشاعر جمة زاخرة بالمحبة والوفاء والحنين الجارف والود.

الأبعاد الموضوعية:

لقد مثلت تلك التجربة مسبارًا حقيقيًّا للوقوف على فلسفاته ورؤاه ومعتنقاته الفكرية بجلاءٍ شديد. لقد استحالت أبيات (عبد المعين الملوحي) في هذي المرحلة العسرة بعد مرضه العضال إلى صهاريج مترعة بفيضٍ وجوديٍّ ينساب

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٦١
(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

كالسلسال على صفحات مرثيته، وقد استمد قلمه مداده من علالة أنفاسه الأخيرة، وأضحى شعاره في غضون تجرِبته العاتية المريرة هو (أُبدع لأحيا)، فالوجود الحق هو الإبداع الذي ينساب على سطور أوراقه، كما تنساب أنفاسه ونبض قلبه عفوًا.

والسؤال الذي يُطْرَح في هذا السياق هو:

هل برح خفاء ما أُشْكِل على الذات الشاعرة من فلسفات الحياة وغوامضها في غضون تجربتها الأخيرة؟

وهل انحسرت عنها قناعاتها وإيمانها بالمسارب التي سلكتها في ماضيها، وارتأت في غيرها بديلًا؟

إن قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) قد حملت بدورها إضاءاتٍ فكريةٍ وفلسفيةٍ أكثر نصاعةً وحضورًا من الآراء السالفة قبل ولوج شاعرها في ثنايا تجربته مما يؤكد أن الفن ليس قادرًا فحسْب على مجابهة الأزمات وتجاوزها، بل إن دوره الحقيقي يكمن في تفتيت جرثومتها في النفس الإنسانية، وإحالتها إلى أمرٍ اعتياديّ مغلفٍ بإهاب الشاعرية.

حملت القصيدة موضوع الدرس جملةً ثرةً من الأبعاد الموضوعية التي توزعت على غير محورٍ، ولعل من أبرزها:

١ – البُعْد الديني:

لم يُقَنِّع الموتُ أفكار الملوحي بغلالةٍ معتمةٍ بائسةٍ، بل كشف عن وجهها، فالذات الشاعرة قد نصبت خيمة إبداعها على أبواب اللحد، فالفراق قد أضحى مثيرًا للشاعرية، وداعمًا لفلسفةٍ إيمانيةٍ محضةٍ تتكئ على اليقين التام بالله بعد أن عصفت بها التجارب والأحداث المريرة، وإذا كان الموت هو نقيض الحياة، فقد تبدَّى القصيد –ههنا– جوهرًا لها، بل ومكمنًا ترى فيه الذات الشاعرة نقيضًا لحياتها الدنيوية المترعة بالسلب.

لم تطرح تجربة الاقتراب من الموت (عبد المعين الملوحي) كل مطرحٍ في الشك، وإنما انغرس بها في مغارس اليقين، إذ يقول[١]:

كَفَــرْتُ بِرَبِّــي أَرْبَعِــينَ فَمُــذْ بَــدَا لِـيَ الشَّيْبُ خَلَّفْتُ الشُّكُوكَ وَرَائِيَا
وَقَــالَ رِفَــاقُ الأَمْــسِ: ضَــلَّ طَرِيقــه مَعَـاذَ إلهـي، بَـلْ تَرَكْـتُ ضَـلَالِيَا

لـم تتحـول حيـاة (الملـوحي) بعـد ولوجـه فـي غمـار تلـك تجربـة المـرض العضال والاقتراب من عتبات الموت خبط عشواء لا دليل فيه، فقد انقلب على عقبيـه شـابًّا بعـد مـوت زوجتـه بهيـرة، ثـم مُنِـيَ بعـدها بوفـاة ابنتـه (ورود)، فـذلك الكوكب السائر في سماء الفن لم يتهشم عندما اصطدم بقوى السلب والاحتضار عندما مروره بتلك التجرِبة في أخريات حياته بعد أن قارب على السبعين، يقول جـاك شـورون متحـدثًا عـن (سـقراط)، وشـجاعته فـي مواجهـة المـوت: (كـان فـي السبعين من عمره حينما صدر عليه الحكم بالموت، وقد كان لهذه الحقيقة تأثيرٌ قويٌّ على موقفه من الموت، فهو يقول في محاورة أقريطون:"إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سنِّي، فإن عليه ألَّا يجزع من اقتراب الموت) [٢]

لقد صار ذلك الطائر المغرد في سماء الشاعرية طيرًا مهاجرًا قد آن له أن يرحل من وكره، فصار مسلِّمًا بالأقدار، متكئًا على يقينٍ بالغٍ بالخالق عزوجل، يقول الملوحي[٣]:

وَمَـنْ أَنَـا شَـيءٌ كَالْهَشِـيمِ مُمَـزَّق تُخَطِّـطُ لِـي هُـوجُ الرِّيَـاحِ مَسَـارِيَا
تُلَاعِـبُ بـي خَفْضًـا وَرَفْعًـا وَتَنْتَهـي مِـنَ الْعَبَـثِ المحْمُـومِ يَـوْمَ انْتِهَائِيَـا
رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوجَ الرِّيَـاحِ غَـدًا إِذَا تَـبَلَّجَ نُـورُ الْفَجْـرِ أَرْحَـلُ غَادِيَـا

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:11

(٢) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتَّاح إمام، ط المجلس الوطني للثقافة والفنونوالآداب– الكويت، إبريل ١٩٨٤م: ٥٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: 10

إن شعور الاقتراب من الموت يدفع الذات إلى الشعور بأنها مسيرةٌ لا خيار لها في هذي الحياة.

٢ – البُعْد الاجتماعي:

ساد شعور الوُد والرأفة والحنان نفس الملوحي، فلم تعصف به الظنون والوساوس والأحقاد والظغائن، إذ يقول(١):

وَمَنْ أنَا مَنْ يَبْكِي عَلَى النَّاسِ حَاقِدًا وَلَكِنَّنِي أبْكِي عَلَى النَّاسِ حَانِيَا

فقد كان قلبه مترعًا بالمحبة، عامرًا بالإنسانية. لقد راح الملوحي ينافح طيلة حياته عن بعض القضايا المجتمعية التي أثَّرَتْ في كيانه تأثيرًا بالغًا، فأخذ على عاتقه مناصرتها ما دام حيًّا، ولعل من أبرزها:

قضية الفقر:

لقد آمن (عبد المعين الملوحي) بالاشتراكية، ودافع عنها في ثنايا قصيدته، فهي الحل الناجع للمثالب التي يعاني منها مجتمعه، وهي السبيل القويم لتقليص المتاعب والآلام التي تقاسيها تلك الشعوب، ولم ينقلب عليها بعد مروره في تلك التجرِبة العسرة، يقول الشاعر واصفًا نفسه: (كنتُ منذ العشرين، وما أزال، أطبِّق على تطور المجتمع والطبيعة والعَلاقات بين الشعوب والطبقات مبادئ الماركسية العلمية، ولا أحيد عنها، وأدعو الناس إلى تبينها) (٢)

يقول محمد غازي: (إن قفزة عبد المعين الملوحي بين المادية الجدلية والروحانية الإنسانية مدَّت أمام عينيه آفاقًا إنسانيةً رحبةً، تصوفت خلالها الماركسية في محرابه، وغدت شوقًا إلى انتصار الإنسان على الاستغلال) (٣)

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:١٢

(٢)محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود – عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين، ط ار الإرشاد للنشر، حمص– سوريا، ٢٠٠٧م: ٢١

(٣) محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود – عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين: ٤١

لقد استطاع الشعر أن يُحَوِّل تلك الصرخة المدوية في ماضي الملوحي إلى ترنيمةٍ وصيحةٍ قويةٍ تناصر الضعفاء وأصحاب الحقوق والكادحين، فالفن لم يكفل السمو على ترهات واقعه وسلبه، ولكنه هو المخلص لتلك الذات من ربقة الفناء الذي قَوَّض خطاها في ماضيها. يقول الملوحي: (نعم لقد ذقتُ الجوع، ذقته طوعًا، وذقته كرهًا، كرهته منذ ذلك اليوم كرهًا عنيفًا، كرهته في نفسي وفي نفوس الناس جميعًا، كرهته في معدتي، وفي معدة شعبي كله، أهكذا يشعر الجائع هذا الشعور بالجوع؟ أهكذا يخاف أن يسقط خورًا وهو في الشارع؟ منذ ذلك اليوم قررتُ ألا يبقى في الأرض كلها إنسانٌ واحدٌ جائعٌ، ومنذ ذلك اليوم قررتُ ألا أترك في الدنيا إنسانًا جائعًا) [١] ليؤكد هذا المنزع بجلاءٍ في قصيدته موضوع الدرس، إذ يقول[٢]:

وَعِشْتُ اشْتِرَاكيًّا إذَا جَاعَ جَائعٌ أُحِسُّ لَهِيبَ الْجُوعِ يفْرِي فُؤَادِيَا
وَإنْ ثَارَ فِي الأَرْضِ الْعَبِيدُ وَجَدتَنِي نَصِيرًا لِزَحْفِ الثَّائِرِينَ مُوَالِيَا

فالملوحي لم يتوانَ عن مناصرة الآخر في قضاياه ومطالبه، وتبني تلك القضايا التي من شأنها أن تطرح عن كاهله أعباء الحياة، وتمنحه شعورًا بالمساواة والعدالة والحرية، وتستنهض طاقاته وقواه.

٣- البُعْد التاريخي:

بدا البُعد التاريخي وافر النصيب في القصيدة موضوع الدرس، فالملوحي قد راح يتغنى بمآثره في ماضيه التليد الخصيب، وقد بيَّن إنجازاته الباهرة في غير ميدانٍ من ميادين الحياة، نحو: العمل، والدفاع عن قضايا الوطن، فذلك الاستدعاء للطاقات الإيجابية في ماضيه التليد بمقدوره أن يبدد الشعور القاسي بوطأة تلك الأثناء العسرة والسياق الآزم، ويطرح عن الذات الإحساس بالهشاشة

(١) محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود – عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين: ٢٢
(٢) عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

والضعف والاهتراء والعدمية، فعندما تطاول الذات أعنة السماء بأمجادها الماضية، فإنها –حينئذٍ– ترتفع عن ترهات حاضرها، وسوداوية مستقبلها.

٤– البُعْد الاجتماعي:

اهتم الملوحي اهتمامًا بالغًا بالروابط الاجتماعية التي تقوم على الصدق والمصارحة مع (الآخر)، فهو يكره التكلف والرياء والمجاملات الزائفة، إذ يقول(١):

يَقُولُونَ لِي: كَانَتْ حَيَاتُكَ خِصْبَةً وَأَعْطَيْتَ مَا أَعْيَا السَحَاب الْهَوَامِيَا
فَقُلْتُ لَهُمْ: خَلُّوا الثَّنَاءَ، فَإِنَّني أُحِبُّ صَدِيقًا صَادِقًا لَا مُحَابِيَا

فهو المحب الذي يمنح أصدقاءه المحبة الخالصة والوُد المحض، وقد ذكر جاك شورون أن (كل الأعمال الإنسانية يمكن أن تشتق من الحب، وهو يصبح إنسانًا حقًّا، أي كائنًا أخلاقيًّا حقًّا، حينما ينفض عنه أنانيته الطبيعية، ويتغلب على وجوده الساعي إلى ذاته، ويستسلم لوجود الآخرين، وكلما أوغل المرء في هذا المعراج ازدادت إنسانيته) (٢)

إن إلحاح الملوحي على انفتاحه على الآخر ومحبته الخالصة له يعد تأكيدًا على صورته الإنسانية المثلى التي يستعين بها في مجابهة ذلك السلب، وهو يتأسى على فراقه لهم، إذ يقول(٣):

ذَرَفْتُ رِثَائي دَمْعَةً بَعْدَ دَمْعَةٍ إِذَا رَحَلَ الأَحْبَابُ طَالَ وَدَاعِيَا
وَدَاعَ امْرِئٍ مَيْتٍ أَحَبَّ رِفَاقَهُ وَأَيْقَنَ بَعْدَ الْيَوْم أَنْ لَا تَلَاقِيَا

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة:١٢

(٢) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت، ط إبريل ١٩٨٤م: ١٩٧

(٣) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٣

٥- البُعْد السياسي:

شغل البعد السياسي عقل الملوحي ووجدانه وأيامه، فراح يدافع بكل قواه وطاقاته عن قضايا وطنه الحبيب (سوريا)، وقضايا الوطن العربي في غيرِ بقعةٍ من بقاعه، فأخذ يندد بسوء السياسات، وتردي الأوضاع، وخيبة الآمال جراء سقوط بعض الدول في شَرَك الحرب والدمار، فكان دائم التفكير في أمر أمته العربية، ويسعى جاهدًا لتذكير رجالها بمحنتهم، إذ يقول(١):

وَأَوْمَأْتُ إيمَاءً لِمحْنَةِ أُمَّتِي عَسَى يَتَقَصَّى الأَذْكِيَاءُ المغَازِيَا
أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنسعةٍ: أَمَعْشَر قَوْمِي أطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا

فقد شُغِل الملوحي بقضايا أمته العربية في بيروت والقدس وبغداد، ولم يقصر اهتمامه على وطنه (سوريا)، مما يكشف عن عمق شخصيته وتكوينه وفلسفاته وإنسانيته. فلقد كان آخذًا على عاتقه تحرير تلك الشعوب جميعها من الاستبداد والاحتلال والتردي، إذ يقول(٢) :

وإن ثَارَ فِي الأَرْضِ الْعَبِيدُ وَجَدْتَنِي نَصِيرًا لِزَحْفِ الثَّائرِينَ موَالِيَا
وَهَبْتُ عُيُوني لِلشعُوبِ بَصِيرَة عَلَى كُلِّ طَاغٍ فِيهِ أَنْقَضُّ بَازِيَا
أَمَانِيّ لِلدُّنْيَا وَللنَّاسِ كلهم إذَا مَا تَمَنَّى المترَفُونَ الأَمَانِيَا

ليوظِّف مفرداتٍ نحو: (في الأرض/ الشعوب/ الدنيا والناس) للدلالة على شمولية الرؤية والهدف والمسعى، فهو لا يرجو نفعًا شخصيًّا، فسعادته مشروطةٌ بتحقيق النفع والخير لذاك الآخر دون تمييزٍ بين حدودٍ سياسيةٍ وجنسياتٍ، وقد أذهبت تلك الظروف السياسية العصيبة في البلدان العربية بجل سروره، إذ يقول(٣) :

---

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٣
(٢) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٠
(٣) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٢

دَفَنْتُ سُرُورِي فِي مَصَائب أُمَّتِي فَكَانَتْ حَيَاتِي الرَّوْض لَمْ يَلْقَ رَاوِيَا

٦- البُعْد التأملي:

يعد البعد التأملي من لوازم قصيدة (رثاء النفس)، فاقتراب الرحيل عن دنيانا يدفع الشاعر إلى الولوج في دوائر التأمل، وفحص فلسفة الموت والحياة، وعرض خلاصة رؤيته فيهما في ثوبٍ شفيفٍ، وقدحملت تلك المرثية جملةً من الأبيات التي اتسمت بكثافةٍ لافتةٍ في الرؤية وعمق التأمل وجمال العرض، ولعل من أبرزها[١] :

تَرُوقُ الْعَنَاقِيد الثَّعَالِب حُلْوَة وَيَشْتُمْنَهَا إنْ كُنَّ عَنْهَا نَوَائِيَا

ويطرح على المتلقي فلسفةً بالغة الأثر في الحياة، فالإنسان غالبًا ما يلجأ إلى الإسقاط، وهو حسْب تعريف (معجم علم النفس والتحليل النفسي): (هو حيلةٌ، أو عمليةٌ تلجأ إليها النفس البشرية في حلها للصراع الدائر في الشخصية حول دافعٍ نفسيّ معينٍ بأن تتخلص من هذا الدافع فترميه، أو تسقطه على شخصٍ خارجيّ، أو أي شيءٍ خارجيّ) [٢] ويتغيا الفرد اطراح المثالب والنواقص بعيدًا عن نفسه دون أن يضع الأمور في نصابها القويم، ويعود ليطْرح الملوحي على أسماع المتلقي خلاصة فلسفته وتجاربه، إذ يقول[٣]:

إذَا لَمْ يَقِ اللهُ الْفَتَى بِجَنَانِهِ وَرَحْمَتِهِ لَمْ يَلْقَ فِي النَّاسِ وَاقِيَا

فرحمة الله وحدها هي القادرة على حمايتهم من شرور الحياة ونوازلها، وهي التي تستطيع أن تعبر بهم ضفاف الأمان دون حولٍ منهم ولا قوة، فذلك السياق

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ٩

(٢) فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، ط١: ٥٠

(٣) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ٩

العسر قد انتهى بالملوحي إلى إيمانٍ تامٍ لم تنتهبه تلك الأحداث السوداوية التي عاناها. وقد تبدَّى البُعْد التأملي في محورين رئيسين، هما:

أ- رثاء الذات:

انصرف الملوحي إلى رثاء ذاته عبر أبياتٍ تفيض بالفخر بمآثر الماضي، وتارةً بالحسرة والندم على ما آلت إليه النفس والأمة، ليختمها بقوله[١] :

ذَرَفْتُ رِثَائي دَمْعَةً إِثْرَ دَمْعَةٍ إِذَا رَحَلَ الأَحْبَابُ طَالَ وَدَاعِيَا

ب-فلسفة الموت والحياة:

أعلن الملوحي منذ مفتتح قصيدته رؤيته للحياة، فهي سرابٌ خادعٌ تملأ نفس الإنسان ظمأً وجوعًا، وليس شبعًا وريًّا، إذ يقول[٢]:

سَرَاب يَغُرُّ الرَّكْبَ حَرَّانَ صَادِيًا وَيَغْمُرُ بِالمَاءِ الْغرُور الصَّحَارِيَا

فالحياة رحلةٌ قصيرةٌ عابرةٌ تنقضي بين الأوهام والبحث عن الطريق، لتنتهي بالمرء على شاطئ الموت، وهي ليست غايةٌ في ذاتها، وإنما هي محطةٌ في حياة الإنسان، عليه أن يُحسن وقوفه فيها.

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه: ١٣

(٢) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه: ٨

المبحث الثاني

مرثية (عبد المعين الملوحي) والسياق الآزم

الإبداع عن الموت بوصفه تساميًّا:

لعل ممارسة العملية الإبداعية في خضم تجربة الاحتضار الفريدة يعد وجهًا من أوجه التسامي على هذا الواقع المهترئ الذي تعانيه الذات الشاعرة. إن "التأمل المتسامي" كان من بين أبرز آليات الانعتاق من براثن التفكير في تجربة الموت، يقول جيمس ب.كارس: (إذا لم يكن هناك موت، أو إذا لم يكن للحياة حدود لا يمكن تجاوزها، فإن هذا يعني أنه ليس هناك تجرِبة على الإطلاق) [١]، فالموت هو الذي يضفي قيمةً ومشروعيةً على تجرِبة الحياة، فلقد كان الشعر هو غياث (عبد المعين الملوحي) وملجأه في ثمالة حياته، فقد استعصم بحبل إبداعه حتى انطفأت ذبالة روحه في الحياة الأرضية، لتشرق –حينئذٍ– في مدارات الأبدية والخلود. لقد شكَّل الشعر"قُبْلة الحياة" التي انفلت بها الملوحي من أَزِمَّة الشعور بالموت ومتاهاته، وانقلب بها على مخاوفه ووساوسه من وحشة الاحتضار.

إن فارس الكلمة أَبَى على نفسه إلا أن يقضي نحبه في محراب الفن والشِّعْر بين يدي قصائده. إن مشاعر الاحتضار لم تُمَثِّل خيالاتٍ سوداء قاتمة تُطَوِّف في مخيلته، بل صارت"وشمًا" قد انطبع في شراييِنه وكيانه المؤرق، يقول جاك شورون: (يقول لاندسبيرج إن الإنسان يصل إلى معرفة الموت من خلال تجربةٍ خاصةٍ بالموت) [٢]، فتجربة الموت الوشيك لم ينخرط بها في متاهاتٍ

(١) جيمس ب. كارس، الموت والوجود (دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي، ط المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٨م: ٣

(٢) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح: ١٩

معتمةٍ من الذكريات، بل انطلق بها في مدارات النور والضياء والأريحية، فأغوار نفسه المعذبة قد استحالت معها ذكرياته وماضيه إلى سخافاتٍ وحماقاتٍ وترهاتٍ يجوب بين أطلالها، ويتأسَّى على ذكرياتها.

ولم ينسج الملوحي مرثيةً لنفسه تعبق بالأسى واليأس، بل خرجت قصيدته تعجُّ بالقوة والثورة، وتنضح بعبير الإشراق والأمل في غدٍ أفضل، وأنتج وفرةً من الأبيات المكتنزة بالدلالات والكثافة الإيقاعية مما يؤكد أنَّ الشعر خلقٌ لعوالم من الإيجابية بمقدورها أن تتعالى على سلب الواقع، يقول الملوحي:[١]

إذَا لَـمْ أجِـدْ فـي عَـالَمِ الْيَـوْمَ مَطْمَعِي   فَفِـي الْعَـالَمِ الآتِـي السَّـعِيد رَجَائيَـا

إن ممارسة العملية الإبداعية تعد –في أبلغ صورها– (طقسًا تطهيريًّا)، تَجُوب به نفس الملوحي في مدارات الطهر والنقاء والصفاء، فقد صار الشعر هو " الترتيلة المقدسة" لا تفتأ ترددها، وهو أنشودة الخلود، فطوبى للغريب الذي قدَّم روحه على مذبح الوجود، وصارت عذاباته ووجيبه هي قربان الفداء، فالحقيقة لم تغم من وطأة تجربته القاسية، بل تعرت وانفتحت به غوايتها على مداراتٍ شتى، فالنبوءة التي نذر لها روحه وشاعريته، وأيامه الحبلى بالأمل والثورة والفورة في شبابه باتت تحلق على أعتاب غرفته المسكونة بالصمت، وتُبَشِّر بالوطن المفقود.

إنَّ ذلك النتاج الأدبي يمثل انزياحًا أو لنقل"عدولًا" عن الاعتيادية والنمطية في نسق الإبداع، فهو يتأسس على المفارقة بين زمنه وفنيته. لقد مضت به تلك التجربة قُدُمًا في مسارات التحدي، وأشعلت حماسته، وأوقدت قريحته الشعرية الثَّرة، يقول الملوحي[٢]:

هُوَ الشِّـعْرُ مِثْلُ الْخمْرِ فِي الْقَلْبِ وَقْده   يُطَـوِّفُ فِـي الأَضْـلَاعِ حَـرَّانَ كَاوِيَـا

---

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:١٣

لقد شكلت تجربته ما يُعْرَف (بموت الأزمة)، وكأن تلك العذابات التي قاساها كانت سبيله إلى التطهر والارتقاء والسمو، والولادة الحقة المثلى له التي تخلو من أدران العالم الدنيوي وسخافاته، وتنقشع فيها غياهبه. يقول جيمس ب.كارس: (وأيًّا كانت قوة الموت، فإن استراتيجيتنا أمامه أن نمضي بالحياة إلى موقعٍ آخرٍ، وأن نحاول بلوغ مرتبة من الإرادة أعلى لا يمكن لقوة الموت أن تقهرها) [١]، يقول الملوحي[٢]:

دَعُونِي أُطَرِّح بَعْدَ مَوْتِي مَتَاعِبِي كَفَانِيَ مَا لَاقَيْتُ حَيًّا كَفَانِيَا
لَقَدْ عِشْتُ بَحَّارًا قَضَى الْعُمْرَ تَائِهًا وَلَاحَ لَهُ شَطٌّ فَأَلْقَى المرَاسِيَا

إن تلك التجربة لم تقترع النار في قلبه، بل أضرمت زناد شاعريته، وفَجَّرَت ينبوع إبداعه الثر، وأطافت به على فضاءاتٍ حالمةٍ مزهرةٍ ثرَّةٍ، ووردت به حياض شاعرية مونقة. إن الموت لم يكن ليحيل شاعريته أرضًا يبابًا تُقْتَلَعُ فيها ذاته وكينونته و جذوره، وأن يستلب فحولته الشعرية، ويخصي إبداعاته الخصيبة الثرة.

إن الشعر الذي أبدعه (عبد المعين الملوحي) قد صار طعنةً نافذةً في جسد الزمن، أطاحت بسطوته وفاعليته التدميرية على ذاته، وأطاش سهامه المسمومة، وقَوَّض قبضته العاتية. لقد أصبح الشعر عنده سيفًا بتارًا يذود به عن حياض الموت والاستلاب، ولواءً يُشهر على تخوم قلبه ليعلن أن الفن هو ترياق الوجود، وأكسير الحياة.

لقد كانت تلك التجربة في نفسه حدثًا فاحصًا عن كثيرٍ مما يعتورها، فلم يعتسف طريق نهايته حينما عسعس ليله البهيم، وأناخ به الفراق الأليم في دوائر

(١) جيمس ب.كارس، الموت والوجود (دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي، ترجمة بدر الديب، ط المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٨م: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

الوحدة والألم، بل سار على هدى إبداعه، وضياء شاعريته، فتلك الظروف لم تُجْهِزْ عليه، بل بلغت به غاية عنفوانه، وشَدَّت أعنته، ولقّحت إبداعه، وَصَفَتْ بها غدران شاعريته. يقول أرنولد توينبي: (إن عملية الاحتضار قد تواجه بالإعجاب إذا احتواها الإنسان بالكرامة والاطمئنان) (١)

لقد أوغل (عبد المعين اللوحي) في مسارب الفقد والفراق، وجعل الشعر ضميمه الفريد في تلك الأثناء العصيبة، وشِرْعَتَه الفريدة، ولم يضو خطابه الشعري، أو تضق عليه سبل الإبداع، فقد كان الشعر طِبَاب أوجاعه في تلك الأثناء العسيرة، استبرأت نفسه به من تلك العوالق الدنيوية التي خالطتها، ، يقول الملوحي(٢):

إذَا صَـغْتهُ أُشْـعِرْتُ رُوحًـا وَرَاحَـةَ وَإنْ لَـمْ أَصُـغْهُ ظَـلَّ يَلْهَـثُ وَارِيَـا

وقد دفعت هذي الحياة بغوائلها إليه، ودَكَّتْه بشدائدها، وجهدته بصروفها، ولكنه –على الرغم من ذلك– دَمَّث لنفسه قبل ميتته بتجرِبته الإبداعية– مضجعًا، وأحسن استقبال رحيله الأخير بشعريته البالغة، فتصون قلبه من العلوق ببهرجها، وقد كانت نفسه رَحْبَة الذراع –في بعض الأحايين– بأمر الفراق، وقد شَدَّت رحلها، وأرخت خناقها وربقتها لتفارق السلب الذي يحاصرها.

لقد كان الشعر خير ردءٍ له في معترك أزمته، ولم يُشَكِّل في ذاته مضيقًا ومرتطمًا، ولم يتخذه أعتوبةً لدهره، بل وجد فيه سعةً ورحابةً، فقد رفد قلبه، وبعثه من مرقده، وأحال هَمْدَة علته إلى ثورةٍ عارمةٍ تتقد بالحماسة والقوة والإيجاب، وديمة تهمي بأبياتٍ بديعةٍ تنداح على سطور أوراقه، فشاعريته الفذَّة قد ارتكزت على الإبداع عندما عقم أمسه وحاضره، ولم تُخْلِف أحلامه، ولكن قلمه كان يسيل

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٥٩

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

بالإبداع، فرمس في قلبه الدنيا ونوائبها، ومضى على رمضائها، حتى بلغ الرمق الأخير من حياته. لقد مثَّل الشعر في كيانه المعذب شِبْعًا وريًّا بعد ما عاناه من تلك الحياة القاسية.

إن الشعر لم يمثل في خضم تلك التجربة في ذاته وكيانه تأساءً فحسب عن مصابه بفراق تلك الحياة الأرضية التي عانى فيها من قيد الأسر، بل شكَّل حياةً ثرةً رحبة الفضاء تتجاوز مفردات الحياة المنقضية، وتتعالى على سلب الواقع الأليم. إنَّ نفسه التي أرِقَتْ من طول سهاده

في دنياه قد آن لها أن تهجع وتطمئن بعد ولوجه في ذلك المسار الأخروي. ولعل احتباس الشعر في فاه يشكل ميتةً حقةً تتجاوز ميتته الأولى، فالشعر الذي قد نبت في حنايا أضلعه قد أثمر حياةً غضةً تُقاوم تلك الأيام العجاف اللاتي مرَّ بها في غضون أزمته.

لقد كان (عبد المعين الملوحي) والظروف القاسية التي مر بها في غضون مرضه العضال كفرسي رهان، قد أبت عليه شاعريته إلا أن يكون المجلى فيها، وأن يَصَّعَد في ذرى المجد، فقد هَدْهَدَ الشعر كيانه الذاوي البائس، وبثَّ فيه ماء الحياة، فراح ينسج يأسه وضبابية حاضره في ثوبٍ شعريٍّ قشيبٍ، يقول الملوحي(١):

أمَامِي غَدٌ كَالليْلِ أَسْوَد كَالِح وَخَلْفِي أمْسٌ كَانَ أحْمَر قَانِيَا

تشَابَهَتِ الألْوَانُ حَيًّا وَمَيّتًا فَمَا لِيَ أشْكُو فُرْقَةَ الرُّوحِ مَا لِيَا

لقد عصفت تلك الظروف العسرة بدلالات الألوان في تلك المرثية، وأدَّت إلى تماهيها، فعندما أطبق اليأس على الذات الشاعرة، واختلطت سوداوية

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

الماضي بضبابية المستقبل، تشابهت –حينئذٍ– الألوان، في إشارةٍ إلى بؤس الحال وشدة المعاناة في الأزمنة جميعها التي حرمته متعة التلذذ بمذاقات الأشياء.

يقول أرنولد توينبي: (وعلى الرغم من التسليم بحتمية الموت، وحتى إذا كان العمر والعجز والوحدة قد ضاءل من الآمال في السعادة، فما زال هناك إحساس بالخسارة والحزن عندما يكون من الواضح أن الحياة ستنقضي في القريب العاجل) [١]

إنَّ أمانيه ورؤاه لن تُقبر في جدثٍ، فتلك التجرِبة على الرغم من قسوتها لم تمصِّر عطاء الملوحي وإبداعه، بل لقد ازداد كثافةً وألقًا، وامتشقت التجرِبة ما في نفسه من قلقٍ، واستَلَّت ما اغتذى به في غضون حياته من سلبٍ، فتلك الأفكار السوداوية التي كانت تَنُوس في وجدانه وكيانه قد آن لها أن تتبدد عندما آذنت شمس حياته بالرحيل، وأن تغادر مرجلها بعد أن عاثت الحياة في وجدانه وكيانه، وأذاقته ألوانًا من الألم والأنين والمرارة، وقد خلص نجيًّا من مدارات السلب، وترهات الظن واليأس بعد أن عَنُدَتْ جراحه الثخينة، وعلَّ الأمر عليه، فتلك الحياة قد صارت حربًا عوانًا اخترمت أجله وقواه، ولكنها لم تهزم شاعريته أبدًا. يقول الملوحي[٢]:

سَــلَامٌ عَلَــى الــدُّنْيَا سَــلَام مُــوَدِّعٍ فَقَدْ حَانَ عَنْ هَذِي الدِّيَارِ ارْتِحَالِيَا

إن تلك التجربة التي أخذت بعنقه كانت تمثل عقبةً عنودًا قد استفزت شاعريته، وألجأته –في معظم الأحايين– إلى مسارب نفسيةٍ وعرةٍ، تتصف بالحزونة والقسوة، ولكنه –على الرغم من ذلك– لم يعتنف الحياة ومباهجها، بل ظلت أحلام المستقبل وأمنياته الحُلوة عَنِيقَة خيالاته الشاعرة المبدعة. لقد صاحَتْ

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٧٧

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

به تلك التجربة إلى رحاب الإبداع وغواية القصيد، وما انعاج في أثنائها خيطُ أحلامه وحبلُ شاعريته، لقد استحالت الحياة في نظره كمِعْوَزٍ تسربل بعده رداء الخلود.

لقد خلقت تلك الأحداث حالةً قصوى من الاستنفار وحشد كل الطاقات والقوى النفسية والفنية لمجابهة السلب الذي يخترم نفس الملوحي، ويضعضع كيانه، إذ يقول(١):

وَأَزْرَعُ آمَالي فَأَحْصُدُ خَيْبَةً   وَأَغْرِسُ أَحْلَامِي فَأَجْني عَوَادِيَا

إذَا مَا وردت النَّبْع كَالشَّهْدِ مَاؤهُ   صَدَرْتُ طَرِيدًا ظَامِئ النَّفْسِ صَادِيَا

فلم يؤثر في كيانه ذلك السلب والحرمان اللاذع، فقد لاذت روحه بحِمَى الشِّعر، وحصون الإبداع، وثغر القصيد.

إن ممارسة العملية الإبداعية في خضم تلك التجربة العاتية ليؤكد أن الشعر كان معادلًا موضوعيًّا للحياة الحقة في أجلى صورها وأبرز تجلياتها، فقد التامت جروحه بتلك التجربة من ندوب الذكرى، وأوجاع الحاضر وعذاباته وقساواته، يقول الملوحي(٢):

وَفِي الشِّعْرِ لِي مَأوَى أَلُوذُ بِظِلِّهِ   وفِيهِ إذَا عَزَّ الدَّوَاءُ دَوَائِيَا

وإذا كان الإنسان لا ينزل النهر مرتين، فإن (عبد المعين الملوحي) قد اغترف من نهر الإبداع، ولم يعاني من اعتياص سبل القول عليه، ولم تجدب شاعريته الفذة، ولم تنغلق أمام قريحته الثرة مسارب الإبداع. إذ يقول(٣):

تَجِفُّ يَنَابِيعُ المنَاصِبِ وَالْغِنَى   وَيَبْقَى عَطَاءُ الشِّعْرِ كَالنَّهْرِ جَارِيَا

(١) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٢

(٢) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة: ١٣

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

إن مستقبله المخبوء لم يجل به في مدارات الحيرة والشك، بل أسلم قياده إلى يقينٍ قمئٍ بالتسليم له، تنفجر معه ينابيع النور والارتياح، فتلك التجربة لم تدفعه إلى مواتٍ تجفل به روحه، وتذبل معه زهور شاعريته المونقة، بل اكتنزت كل طاقاته قد أهدت إليه سوسنة القصيد وعطر الإبداع.

وصف ما بعد الموت:

لم يتكلف الملوحي عناء تهويمات الخيالات المكدودة للشعراء الذين سطروا قصائدهم وهم على حافة الموت، بل اكتفى بسرد مصيره المنتظر في القبر، يقول الملوحي[1]:

وَأَبْقَى أَنَا وَحْدِي أُصَارِعُ فِي الدُّجَى كَتَائِبَ دُودٍ رَائِحَاتٍ غَوَادِيَا
تُمَزِّقُ أَشْلَائِي وَتَفْقَأُ أَعْيُنِي وَتَنْثُرُ فِي جَوْفِ التُّرَابِ رُفَاتِيَا

فلم يذهب إلى وصف تفصيلات الحياة السرمدية الأبدية المنتظرة، وتَخَيُّل مفردات حياة ما بعد الموت، مكتفيًا بوصف حالة العدمية، وتحلل جسده في القبر.

بين مرض (عبد المعين الملوحي) وإبداعه:

لقد مَلَّ الثواء على أسِرَّة المرض الشاعر(عبد المعين الملوحي)، وأطافت به الوساوس والظنون والهواجس والبلابل، وانحسرت أحلامه في تيارٍ جارفٍ من القلق بعد ولوجه في تجربة الاحتضار بعد علته، يقول جاك شورون: (وَفقًا لما يقوله فوير باخ، فإنَّ للموت علةٌ وسببًا وأصلًا ميتافيزيقيًّا ونفسيًّا وعضويًّا. والعلة الأولى غير المحددة واللامتناهية للموت هي اللامتناهي أي الله، أمَّا العلل

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

المحددة والمتناهية فهي الزمان والمكان والحياة. والسبب المحدد واللامتناهي هو العقل والروح والوعي) [١]

إن ذلك (المرض العضال) الذي أصابه لم يكن حابسًا لطاقاته الإبداعية المائزة الفريدة التي تفجرت بقوةٍ على سرير المشفى، ولم يكن الموت خالسًا لكيانه المؤرق، فقد كانت أنفه تعبق برائحته، وهو يقف مليًّا على أعتاب حجرته المتشحة بالأنين. إن الشعر –في هذي الأثناء العصيبة– قد سكنت به نفسه، وذهبت به وحشته، وألهب قريحته، وقَوَّى عزيمته، ولم تكن قدمه –في تلك الأثناء– تسير على أرضٍ وعرةٍ جرَّاء الفراق الوشيك، بل كانت تقف على أرضٍ مطمئنةٍ، ولم تكن أيامه الأخيرة حسومًا، بل كانت غضةً يانعةً مثمرةً فكرًا وإبداعًا، فعندما أناخ عليه الموت بكلكله، فاء إلى ظلال الشعر يحتمي به من هجير تجربته، وقد نافح الموت بأشعاره، فلقد وضعه الشعر في هذي الأثناء على المحجة، وأقاله من عثرته، واستنهضه من كبوته.

كأن جسده الهش الضئيل الذي أنحله المرض تحت مقصلة الاحتضار يقطر قلقًا وهواجس لا دمًا، وقد صارت أهدابه التي كانت تطبق على الحب والسلام والأمان، صارت الآن مثقلةً بالقلق والوحشة، وتطبق على أنينٍ جارفٍ.

لم يكن إبداعه في لُجَّة الفراق هسيسًا ينسرب من بين كيانه وجنباته، أو تناجيًّا لا يجاوز حنجرته، ولكنه كان نداءاتٍ فزعةً تعانق أعنَّة السماء من حوله. إن فارس الكلمة الذي تسنم ذروة المجد والشهرة قد أحوجه المرض إلى الترجُّل من فوق صهوة جواده. لقد تضعضع زهو الحياة وبريقها وألقها في عينيه

(١) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام،: ١٩٨

وكيانه، وذوى وهج تلك المفردات التي كان يتغنى بها، وسخفت مذاقات السعادة والبهجة الحاصلة من معايشتها.

لقد قرع كأس منيته مع يد الموت الغاشمة، وجرعه وهو فرحٌ، وخاض تجرِبته حتى بدت طرائق إبداعه الفريد، واستبان عمود شاعريته القويم. لقد تهيأ جرحه للبرء من صروف الحياة ونوائبها عندما ولج في غضون تجربته العاصفة.

إن المعاين لأشعار تلك التجربة يلحظ ما بين (عبد المعين الملوحي) وشعور الموت من الخُلْطَة والألفة، وكأن أُدْمَةً قويةً قد جمعت بينهما.

إن القصيدة موضوع الدرس –(عبد المعين الملوحي يرثي نفسه)_ قد أفرزها ذلك السياق الآزم (المرض العضال)، فجاءت أبياتها قويةً متدفقةً، يقول الملوحي: (الشعر الحقيقي القوي هو الشعر النابع والناتج عن هزاتٍ عنيفةٍ) [1] فقد مُنِي الملوحي بفقد زوجته (بهيرة)،ثم ابنته (ورود)، فنظم مرثيتين بديعتين في رثائهما قبل أن يصاب بأزمته الصحية الطاحنة، يقول في قصيدته التي رثى بها زوجته بهيرة[2]:

وَصَاحِبٍ قَالَ لِي وَالْكَأسُ مُتْرَعَةٌ وَظَلَّ يَقْرَأُ كَالنَّشْوَانِ أَبْيَاتِي
هَذَا هُوَ الشِّعْرُ، هَزَّتْنَا رَوَائعُهُ فَقُلْتُ، وَالصِّدْقُ عِنْدِي بَعْضُ عَادَاتِي:
لَا لَسْتُ أَحْسَنَ لَا شِعْرًا وَلَا خُطَبًا إِنِّي أُسَجِّلُ مَا تُمْلِيهِ مَأسَاتِي

فحزنه البالغ على فقدها دفعه لنسج مرثيةً تفيض بالأسى والتوجع، يقول علي الجندي: (وكان الحزن يبدو عليهم واضحًا حينما يفقدون عزيزًا، فتتحرك

(١) شاهر أحمد نصر، عبد المعين الملوحي أمير شعراء الرثاء (حوار وانطباع)، ط دار الكنوز الأدبية، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٦م: ١٣٠

(٢) شاهر أحمد نصر، عبد المعين الملوحي أمير شعراء الرثاء (حوار وانطباع): ٣٥

الشاعرية، وتُعَبِّر عن الأسى العميق الذي عَمَّهُم، والخسارة الفادحة التي نزلت بهم وبغيرهم ممن كان الفقيد ملاذًا لهم) [١]

لقد راض الملوحي نفسه في خضم تلك التجربة، وتملك أزِمَّتَها وأعنتها لتنطلق في آفاقٍ تأتلق بالقوة والإيجاب، لتنكسر شرنقة اليأس والسلب التي كانت تُقَوِّض قواه وطاقاته، وتنحبس فيها ذاته. وإذا كان السلب الذي يتغلغل في الأعماق هو معول الهدم في حياة (عبد المعين الملوحي)، فإنه كان يُمَثَّل–في الوقت ذاته– شرارةً قادحةً لإيجابية صورة الحياة الأخرى. لقد مثَّل الشعر رُفُودًا لروحه المتهالكة التي آيست من الانفلات من طوق السلب، وملت الثواء على أسرة المرض.

لقد كان الإبداع في تلك الأثناء العصيبة هو خير تَفْسِرَةٍ عن كيانه الذي اعتمل فيه الفن فسال شعره كالماء القراح، وصارت غرفته معراجًا لروحه، ولم تُمَثِّل تلك الظروف العصيبة التي عاناها قسمةً ضيزى له في هذي الحياة الدنيوية التي اصطخبت بالهموم، بل شكلت قسمةً عادلةً استفزت بدورها طاقاته الإبداعية، فلم ترتجس شاعريته في تلك الحياة القسية، فلقد تَذَرَّع بالشعر في درء أسباب الفناء الروحي، وقد أذكى الموت قريحته، وأشعل حماسته، وأوقد عزيمته، فافترع أبكار المعاني في تلك المرثية، ووهبته التجربة عقائلها. لقد أبدع الشعر في غضون أزمته، وبثَّ نُفَاثة روحه، وهو يلفظ ذَمَّاءَ نفسه، وقد ذَمَّرَهُ الموت على الكتابة، وحضه على استمرارية الإبداع.

إن الملوحي قد تَبَلَّغت به علل الحياة والأجساد، وظل –على الرغم من ذلك– في أكنةٍ من الزلل، وبلابل الفكر والوساوس والظنون. لقد باء بقوة الزمن التدميري التي أصابته في سويداء قلبه وذاته، يقول الملوحي[٢]:

(١) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ط مكتبة دار التراث، ١٩٩١م: ٣٩٤.

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

وَمَـنْ أَنَـا شَـيءٌ كَالْهَشِـيمِ مُمَـزَّق تُخَطِّـطُ لِـي هُـوجُ الرِّيَـاحِ مَسَـارِيَا
تُلَاعِـبُ بِـي خَفْضًـا وَرَفْعًـا وَتَنْتَهِـي مِـنَ الْعَبَـثِ المحْمُـومِ يَـوْمَ انْتِهَائِيَـا

لقد اغتذى خطابه الشعري بمفردات البأس والقوة والصمود والتحدي. وقد جعل فلسفته في غضون تلك التجربة على تخوم أشعاره التي أُتْرِعَتْ بأتراحه لا بأفراحه، فقد تَعِسَتْ حظوظه في هذه الدنيا، وتمَّمَت تلك التجربة على جراحه الثخينة، يقول الملوحي(١):

فَلَـمْ تَسَـعِ الأَرْضُ الرَّحِيبَـةُ هِمَّتِـي فَكَانَـتْ أَفَـانِينَ السّـقَامِ جَزَائِيَـا

ولكنها- على الرغم من ذلك- لم تثبط عزيمته وشاعريته، بل راح يشرب من نهر الإبداع نخبه الأخير حتى ثمل، يقول الملوحي(٢):

تَجِـفُّ يَنَـابِيعُ المنَاصِـبِ وَالْغِنَـى وَيَبْقَـى عَطَـاءُ الشِّـعْرِ كَـالنَّهْرِ جَارِيَـا
وَمَـنْ يَهْـوَ مَـوْجَ الْبَحْـرِ يَهْـوَ هَـدِيرَهُ وَمَـنْ يَهْـوَ مَـوْجَ الشِّـعْرِ يَهْـوَ الْقَوَافِيَـا

لقد كان (عبد المعين الملوحي) كوكبًا ثاقبًا في سماء الإبداع والشاعرية والنجاح، واستمر على هذا النحو الفريد بعد ولوجه في مدارات المرض الذي خلَّف إهاب تلك التجربة القاسية التي أثقلت كاهله بالهموم والأسى، يقول الملوحي(٣):

يَقُولُـونَ لِـي: لَـنْ تَشْـهَدَ الْفَجْـرَ سَـاطِعًا بَلَـى كُنْـتُ قَبْـلَ الْفَجْـرِ لِلْفَجْـرِ هَادِيَـا
وَكُنْـتُ شُـعَاعًا مِـنْ أَشِـعَّةِ نُـورِهِ يَشُـقُّ سِـتَارَ الليـلِ أَسْـوَد دَاجِيَـا
إِذَا مَـا طَـوَانِي المـوْتُ قَبْـلَ انْبِلَاجِـهِ فَحَسْـبِيَ أَنِّـي كُنْـتُ للرَّكْـبِ حَادِيَـا

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩
(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:١٣
(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

إن الخلق الفني لمرثيته في غضون تجرِبة (المرض العضال) قد أقاله من عثرته النفسية، وأحيا موات نفسه، وحرَّك أحلامه الثاوية، فغواية الإبداع والتكوين الفني قد جاوزت به المسارب الوعرة والوحشة والقلق، وأسلمته إلى فضاءٍ واسعٍ رحبٍ من الطمأنينة والسكينة. لقد صَوَّتَتْ به صيحة الزوال، فلباها بصوت إبداعه الشجي، وراح يُدَوِّن نفاثاته، يقول الملوحي(١):

سَــلَامٌ عَلَــى الـدُّنْيَا سَـلَام مُـوَدِّعٍ فَقَدْ حَانَ عَنْ هَذِي الدِّيَارِ ارْتِحَالِيَا
وَفِـي الشِّـعْرِ لِـي مَـأْوًى أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ وَفِيـهِ إذَا عَـزَّ الـدَّوَاءُ دَوَائِيَـا
هُوَ الشِّعْرُ مِثْل الْجَمْرِ في الْقَلْبِ وَقْدهُ يُطَـوِّفُ فِـي الأضْـلَاعِ حَـرَّان كَاوِيَـا
إذَا صَـغْتهُ أُشْـعِرْتُ رُوحًـا وَرَاحَـةً وَإنْ لَـمْ أَصُـغْهُ ظَـلَّ يَلْهَـثُ صَـادِيَا

إن (عبد المعين الملوحي) قد لاقى من أمر حياته نَصَبًا، وما اجْتَرَحَتْ يديه إثمًا ولا ذنبًا، فما لانت شكيمته، وما هَزُلَتْ عزيمته، وما افْتَرّت قوته، وتجرَّد للشعر حتى الرمق الأخير في صدره، يقول الملوحي(٢):

رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوج الرِّيَـاحِ غَـدًا إذَا تَـبَلَّجَ نُـورُ الْفَجْـرِ أرْحَـلُ غَادِيَـا

فلم يكن إبداعه في تلك الأحايين يمثل نشيجه حينما نشطت به الوساوس والهموم، بل كان– في معظمه– أُغرودة الثورة والكفاح، يقول الملوحي(٣):

وَمَنْ يَهْوَ مَوْجَ الْبَحْرِ يَهْوَ هَدِيرَهُ وَمَـنْ يَهْـوَ مَـوْجَ الشِّـعْرِ يَهْـوَ الْقَوَافِيَـا

لقد كانت إبداعاته الشعرية الثرة في غضون تلك التجرِبة موجِبَةً لبلوغه أعنة الشهرة وذرى المجد الفني، فجدارة خطابه وفرادته تنبني –في المقام الأول– على ذلك السياق النفسي المائز المكتنز بالوحشة والقلق والتوجس، والمترع بالأنين والألم والسلب الذي أبدع في غماره معظْم لوحاته الشعرية، فقد تضمخ بعطر القصيد، وسطر تلك القصيدة وعينه وِجَاه الموت، وقلبه يستشعر دبيب

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

الفناء الموحش يُقْبِل بخطًى حثيثةٍ عليه، وقد أخذت تلك التجرِبة في قطع وتينه وأوداجه، وظل –على الرغم من ذلك– يسطر إبداعاته الفياضة المتألقة، وحروف أشعاره ندية بالدماء، يقول الملوحي(١):

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا شَذًى فَاحَ فِتْرَةً وَطَيْرًا عَلَى سِكِّينِهِ ظَلَّ شَادِيَا

لقد أمست حياة الذات الشاعرة كالليل الغطيس، وصارت تلك التجربة كالغسق يُبَشِّر بضياء الأبدية والخلود، فغدًا سينحل غُلَّ الوجود الأرضي عن عنقها وكيانها المعذب المؤرق، وستنطفئ جذوة أنفاسها حتى تسكن، وغدًا سيغتمض برق حياتها الدنيوية، ولكن بريق إبداعاتها وشاعريتها المونقة سيظل في وهجٍ. لقد أضحى مداد قلمها الذي يسيل على صفحات أوراقها البيضاء ليسطر مشاعرها وآلامها عوضًا عن دمائها التي جمدت في عروقها من ألم الحدث وبشاعته. وسار الشعر في كيانها كالمجرة التي ينتظم في سلكها تلك الأفلاك الدوارة في مسارٍ فريدٍ عجيبٍ. لقد استحالت تلك الذات إلى حُزمةٍ من النور والألق يستبين بها الطريق أمام اللاحقين، فقد بلغت بها كل مبلغٍ في الجهد والعناء، فلم يغث– على الرغم من ذلك– منطقها وفلسفتها في غضونها، فقد كان لإبداعها في خضمها شأوٌ غريبٌ افتنت فيه، يقول الملوحي(٢):

غَدًا يَطْلَعُ الإِنْسَانُ فِي الأَرْضِ كَوْكَبًا تُبَاهِي بِهِ الأَرْضُ النُّجُومَ الدَّرَارِيَا
وَلَسْتُ أُبَالِي أَنْ أَكُونَ فِدَاءَهُ أَمَا كَانَتِ الأَحْرَارُ قَبْلِي فِدَائِيَا

لقد اعتاف الملوحي الشعر لرحلته الأبدية، فارتأى فيه سبيلًا إلى الأبدية، ورفيقَ نجواه، فقد صارت مَغَبَّة حياته التي استشرى بين جنباتها السلب داءً عياءً لا سبيل للنجاة منه إلا الرحيل، وقد غَبِرت جراحه الثخينة واعتكرت، وتعالى صوتُ آلامه جرَّاء السلب الذي اعتمل في واقعه، وقَوَّض كيانه، فراح يسطره في أشعارٍ تفيض بالأرق والأنين. لقد زوت حياته، وآذنت شمس مشرقه بالمغيب،

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

وتَغرَّضَتْ أحلامه، ولكنها لم تَزُل، بل بقيت شاهدةً على شموخه وفرادته. لقد آن للذات المسجونة في قبو الحياة أن يُحَلَّ قيدها، وأن تزيح عن كاهلها المثقل بالهموم وعْثَاءَ البقاء. لقد استحالت تلك التجربة معبرًا للأمان، وطوقًا للنجاة عندما صارت الحياة غرامًا، والتاعت نفس الملوحي بخيبة واقعها في ذاك "الزمانِ الرَّخْو" الذي استكانت فيه الأحلام، وتأرجح اليقين وتبعثرت فيه الخُطَى، يقول الملوحي(١):

دَعُونِي أُطَرِّح بَعْدَ مَوْتِي مَتَاعِبِي كَفَانِيَ مَا لَاقَيْتُ حَيًّا كَفَانِيَا
لَقَدْ عِشْتُ بَجَّارًا قَضَى الْغُمْرَ تَائِهًا وَلَاحَ لَهُ شَطٌّ فَأَلْقَى المرَاسِيَا

إذا كان "الموت" يمثل غريزةً للكائن الإنساني، فإن (الملوحي) قد حاول الانتصار في خضم تلك التجربة على غريزته تلك، واستطاع أن يُقَوِّض فعل معاول الهدم والسلب. إن السمة المائزة في هذا المبدع ومناط فرادته وجدارته أنه قد اتخذ الأدب قالبًا للتعبير عن ذاته أثناء تلك التجربة العسيرة، فلم يكن الموت في نظره حطًّا للكرامة الإنسانية، فالموت الذي أطاح بأحلامه، وانزوت معه زهرة حياته، لم يغتل قلمه الثائر الطامح، ولم يكن في مخيلته سبيلًا للمهانة وإثارة الغضب وإشاعة الوحشة بين جنبات النفس.

لقد قَدَّم (عبد المعين الملوحي) إبداعه الثر في محراب الموت، فالموت هو الحقيقة الفريدة في هذا الكون الذي تتلاطم فيه الرؤى والأفكار، وتتنازع فيه الأهواء، وتصطخب فيه الادعاءات. وإذا كان الشعر هو تلك العملية الفنية التي يتغيا المبدع من خلالها أن يكتنه الحقائق ويفض مغاليقها، ويسبر أغوارها ويقدمها جليةً بعد أنْ يفيض عليها من روحه، فإن الموت يمثل– بلا شك– جماع الحقائق وأجَلَّها.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

أنساق مواجهة الموت في مرثية الملوحي:

اتخذت تلك الذات الشاعرة جملةً من الأنساق لمواجهة حدث الفراق الوشيك الذي ينتظرها، وقد تباينت وتعددت حسْب ما تعانيه النفس، وما تعتنقه من رؤًى وأفكار، ولعل من بينها:

١- نسق الاستسلام:

انتظم خطاب الموت في قصيدة (الملوحي) في نسق الاستسلام، فقد وقف الشاعر منه موقف المهادنة والمطاوعة والانقياد والتسليم بالمصير المحتوم الذي لا منجى منه ولا مفر، يقول أرنولد توينبي: (إن الطريقة الصحيحة في مواجهته هي أن نعيش على ضوء الموت. ونحن حالما نتقبله بصورةٍ واقعيةٍ تمامًا، فلن يصبح شيئًا يحدث لنا (أو يحل علينا من الخارج كما يحدث في صورة تدميرٍ لا معنى له لجهودنا) [(١)]، فعندما أناخ عليه المرض بكلكله، وقلبت له الحياة ظهر المجن، ألقى عصا الثورة، فقد أضحى الموت متنسمًا أثره، ومحدِقًا به، ومُحْكِمًا قبضته عليه، فلم يستطع الإفلات منه، ولم يقف منه موقف الرفض أو المواجهة.

لقد اكتوت الذات الشاعرة بألم المرض والفراق الوشيك، فأسلمت نفسها برمتها جسدًا وروحًا إلى ذلك الفاعل المجهول دون صخبٍ أو مقاومةٍ، فلم تتسربل الذات الشاعرة بنسوجٍ قوامها الضجيج والنحيب، بل اكتست بهدوءٍ وذهولٍ بالغين، فشقوتها ومأساتها قد كبحا جماح ثورتها، فلم يذرف (الملوحي) سخين دموعه على هذا الرحيل، بل استسلم في صمتٍ وثباتٍ محتفظًا بحِسّه الرجولي، فلم يبد فيها كسابق عهده ثائرًا مناضلًا، ولكنه آض عابر سبيل، قد أسلم قياد راحلته في دعةٍ إلى ذلك الفاعل المجهول، إذ يقول[(٢)]:

وَدَاعًا بَنِي الدُّنْيَا وَدَاعَ مُسَافِرٍ إِذَا مَا شَجَا الأَحْرَارُ يَوْمًا فِرَاقِيا

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٦١

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

إن ذلك الموت محدقٌ بالآخر من الزوايا جميعها، ولا مناص منه، فهو منسربٌ بين الدماء، وقابعٌ خلف الأبواب، ومعانقٌ له، والذات الشاعرة مسافرةٌ عمَّا قريبٍ إلى شاطئها الآخر.

٢- نسق الرفض:

وصف أرنولد توينبي أولئك الرافضين لفكرة الموت بقوله: (يرفضون أن يتصالحوا مع الموت، أولئك الذين يقاومون الموت في تحدٍ)[١]، فلم يَمْثُل الموت في ذهن الملوحي بوصفه عدوًّا لدودًا يناصبه الشاعر العداء، ويمعن في دحض قيمته، وتشويه صورته، وهو –في الوقت نفسه– لم يسلم قياده –في بعض الأحايين– للموت بيسرٍ وسهولةٍ، ولم يستنكر الحياة، فقد ذهب إلى رفض الموت رغبةً في التمتع بالحياة ، فما زالت تلك الحياة الأرضية جديرةً بالمشاهدة والتجربة، يقول أرنولد توينبي: (الموت تدميرٌ لقدرة الفرد على خلق القيم، وهو القضاء على الحرية)[٢]، فالذات الشاعرة لا تستنكر الموت في ذاته، فهو شكلٌ من أشكال الحياة، وإنما لتحظى بروحانيتها وثراء مشاهداتها وتجارِبها، إذ يقول[٣]:

أُحِبُّ حَيَاتِي وَهْيَ كَالصَّابِ مُرَّة وَأَكْرَهُ مَوْتِي وَهْوَ كَالشَّهْدِ حَالِيَا

فالإنسان قد جُبِل على كراهية الموت والنفور منه، مهما بلغ من العمر أرذله، أو ألمته الحياة بمتاعبها.

(١) أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان: ٢٧٦

(٢) جيمس ب.كارس، الموت والوجود (دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي، ترجمة بدر الديب، ط المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٨م: ١٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

المبحث الثالث

تجليات الزمن في قصيدة (الملوحي)

إن الزمن هو قوام الإنسان، وتلك الذكرى هي ذواتنا وكياناتنا التي لا ننفصل عنها بأية حالٍ، وهي المعين الثر الخصيب الذي لا ينضب أبدا، فالماضي ذهبيٌّ خصيبٌ في نظر الذات الشاعرة، والحاضر يقف أمامها ضعيفًا مهترئًا في معظم أحواله. لقد اكتسى الماضي بزةً قشيبةً في ذاكرة (الملوحي)، فهو مترعٌ بالإيجاب الذي فاضت به ذاته في ريعان شبابها، وأثمرت أيامًا خصيبةً ملأى بالتجارِب والسعادة والمآثر.

لم يَمْثُل الماضي في نتاجه الشعري بوصفه زمنًا قد انسرب من بين يديه فحسب، بل تجسَّد بشكلٍ لافتٍ في إبداعه، فذكرياته الغابرة قد أضحت زاده الذي يقتاته في ثنايا تجربته الأليمة، ومعينه الذي لا ينضب في مواجهة الفناء، والعصا التي يتكئ عليها وهو يتجهز لقيامته القريبة، يقول إلياس قطريب: (ولعل وحدة التجربة الشعورية التي مرَّ بها هؤلاء الشعراء أوجدت بعض القواسم المشتركة في قصائدهم، من ذلك –مثلًا– ما يُخَيِّم على أجواء هذه القصائد من حدَّة الشعور بالغربة والقلق إزاء النهاية المحزنة، وما يشيع فيها من مشاعر الرهبة والخوف من المجهول، وما يقابل ذلك من حنينٍ جارفٍ إلى الماضي، تجلَّى في استحضاره واستعراض الجوانب المشرقة منه كتعويضٍ عن بؤس الحاضر وانطفاء المستقبل) [1] لقد استحضر (الملوحي) الماضي إلى رحاب قصائده، يغربل صوره وتفاصيله التي نُقِشَتْ على جدران قلبه، واستقرت في حنايا أضلعه.

(١) إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة:عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش، العدد ٣ امارس ١٩٩٧م: ١٤

والسؤال الذي يُطرح في هذا السياق:

هل صنعت تجربة الفراق الوشيك ثقوبًا في ذاكرته الشعرية؟

لقد احتفظت ذاكرة (عبد المعين الملوحي) ببعض تفاصيل (الماضي) في تلافيفها، ولم تُغَيِّبْه في متاهات الزمن والنسيان، بل أطلت تفاصيله مشرقةً في ثنايا أشعار الملوحي الذي يتجهز للرحيل، وقد اكتست بضياء المحبة والألفة، وتضمخت ذكراها بعبير المودة، لتؤاسي قلبه المفجوع بذاك الفراق الوشيك.

لقد أراد الملوحي أن يأخذ المتلقي في عرضٍ بانوراميٍّ لفترات حياته التي قسمها بدوره إلى ثلاثٍ، هي: (الشباب، والكهولة، والشيخوخة)، ولم يتطرق إلى وصف مرحلة طفولته، أو يميط اللثام عن نشأته، فهو معنيٌّ بإبراز ملامح وعيه فحسب.

١– الشباب:

وقد بدأ الملوحي بمرحلة الشباب التي خرجت فيها طاقاته وقواه من مكمنها، واتسمت بالفورة والثورة والجموح، وقد ارتوى فيها من المتعة الضافية الخالصة من ذلك الآخر (الأنثوي)، وقد تمتع بفيوض الوصل والحب، ولكنه كان حريصًا –في الوقت نفسه– على مواصلة سعيه الدؤوب في الحياة، فقد وزَّع طاقاته مناصفةً بين اللهو والجد، والحلم والغواية، فلم يجر أحدهما على الآخر، وقد أدرك بهما كنه الحياة، وفلسفتها الخاصة، فلم ينجرف إلى المغالاة، وقد كان مهتمًا بقطبي ثنائية (الروح/ المادة)، فلم يقبع في دائرة المحسوسات، ويخلِّي سبيل الروح والشعور في عَلاقته بذاك الآخر، بل وازن بينهما، يقول الملوحي[1]:

وَرَدْتُ الثُّغُورَ الظَّامِئَاتِ مَنَاهِلًا وَطفتُ الصُّدُورَ النَّاهِدَاتِ مَجَانِيَا

تَهِيمُ بِهِنَّ الرُّوحَ رُوحًا فَإنْ طَغَتْ وَأَذْكَتْ دَمِي أَطْفَأتُ فِي الْجِسْمِ نَارِيَا

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٨

إِذَا الْحُبُّ أَرْضَى الرُّوحَ وَالْقَلْبَ أَوَّلًا تَسَامَى فَأَرْضَى الْجِسْمَ وَالدَّمَ ثَانِيَا
وَلَمْ يَرَنِي الإِمْسَاءُ أَرْقُدُ خَالِيَا وَلَمْ يَرَنِي الإِصْبَاحُ أَنْهَضُ صَاحِيَا
وَلَمْ يُنْسِنِي لَهْوُ الْحَيَاةِ مَشَاغِلِي وَلَمْ يُنْسِنِي جِدُّ الْحَيَاةِ الملاهِيَا
وَخَيْرُ السَّجَايَا أَنْ تُوَزِّعَ مُنْصِفًا حَيَاتَكَ: شَطْرِيها حَلِيمًا وَغَاوِيَا

لقد أدركت الذات الشاعرة فساد منطق البشر في التعامل مع معطيات الحياة، فهم يسرفون في المدح والثناء حال حصولهم عليها، ويكيلون لها الذم والهجاء إن استعصت على المنال، وصارت أبيةً على التحقق، فالشيء هو ذاته لا يتغير، بينما تتبدل أحكامنا عليه حسْب احتياجاتنا، فالإنسان متصف بالجحود مع تلك الفترات الخصيبة في حياته، ما إن يفرغ من شبابه حتى يقلب له ظهر المجن، ويرميه بالنقائص والمثالب التي تهدر قيمته وتذهب بعطر سيرته ورونق أيامه، يقول الملوحي(١):

عَشِقْتُ شَبَابي صِغْتُ فِيهِ مَدَائحِي فَلَمَّا تَوَلَّى صِغْتُ فِيهِ أَهَاجِيَا
تَرُوقُ الْعَنَاقِيدَ الثَّعالِبَ حُلْوَة وَيَشْتُمْنَهَا إِنْ كُنَّ عَنْهَا نَوَائيَا

٢- الكهولة:

وتترى الأيام وتتوالى الأحداث ليصل الملوحي إلى مرحلة الكهولة التي تعلن قدومها عبر جملةٍ من العوارض السلبية الشكلية، فهي تذهب ببهاء الشباب وقوة البنيان، يقول الشاعر(٢):

تَوَلَّى شَبَابِي مُشْرِق الْوَجْهِ زَاهِيًا وَأَقْبَلَ شَيْبِي كَالِحَ الْوَجْهِ كَابِيَا

فالكهولة تحمل في طياتها الداء لتحيل الجسد من بعد قوةٍ أنكاثا، وتذهب بريق الشباب أدراج الرياح، وتنطفئ رغبة النَّفْس في اقتراف الذنوب وارتكاب

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

المعاصي، فالسنون التي خلفتها وراء ظهرها صارت الآن تأخذ بتلابيبها عن الوقوع في دائرة السلب. يقول الشاعر(١):

رَكِبْتُ المعَاصِي مَوْجَةً ثُمَّ مَوْجَةً وَأَقْعَدَني دَائي فَعِفْتُ المعَاصِيَا

فالملوحي الآن صفر اليدين من الصبا والشباب، لا يملك إلا دفق المشاعر والحنان يقدمه عوضًا عن الفتوة مع الآخر الأنثوي، بعد أن أقعد عن خوض صولاته الغرامية، إذ يقول(٢):

سَقَيْتُ الصَّبَايَا مَاءَ حُبِّي وَصَبْوَتي وَجَفَّ، فَهَلْ يَقْبَلْنَ مَاءَ حَنَانِيَا؟

وتنتقض قواه، فيضطر إلى الاتكاء على هراوة، ليُحْدِثَ التناقض بين (البداية/ النهاية) حالةً قصوى من المفارقة التي تكشف بجلاءٍ عن هزلية الحياة، فقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فاضطر إلى الذهاب إلى أقاصي الأرض(الصين) بحثا عن العمل، وقد كان يحدوه الأمل في النجاح، ليحصد في ختام مسيرته المرض وخيبة المسعى، يقول الملوحي(٣):

وَيَمَّمْتُ أَرْضَ الصِّينِ أَشْدُو تُرَاثَهَا وَمِنْ لُغَتِي أُهْدِي لَهَا وَتُرَاثِيَا
فَلَم تَسَعِ الأَرْضُ الرَّحِيبَةُ هِمَّتِي فَكَانَتْ أَفَانِينُ السّقَامِ جَزَائِيَا
وَقَدْ زَوَّدَتْنِي فِي رَحِيلِي هِرَاوَةً كَأَنْ لَسْتُ أَلْقَى فِي دِمَشْق هَرَاوِيَا
وَعُدْتُ إِلَى دَارِي أَجُرُّ عَلَى الْعَصَى تَوالي أَشْلَائي وَأَحْمِلُ دَائِيَا
كَذَلِكَ حَظِّي إِنْ طَلَبْتُ سَعَادَةً بِأَرْضٍ سَعَى قَبْلِي إِلَيْهَا شقائيًا

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

إن الاقتراب من عتبات الموت قد أفرز في وعيه شعورًا بالغًا بالتعاسة، لينهي حديثه عن تلك المرحلة –الكهولة– بفلسفةٍ إيمانيةٍ تقطع سبيل اليأس أمام الذات الشاعرة حتى لا تنتهي إلى عتبات السوداوية، فيقول(١):

إِذَا لَـمْ يَـقِ اللهُ الْفَتَـى بِحَنَانِـهِ وَرحْمَتِـهِ لَـمْ يَلْـقَ فِـي النَّـاسِ وَاقِيَـا

فالإيمان التام بالله تبارك وتعالى هو ملاذ الشاعر في أزمته الطاحنة، وملجأه في خضم مأساته، وتبدو الكهولة وقد انمحت منها البهجة بعد أن مخضته الحياة، إذ يقول(٢):

تَـوَلَّى شَـبَابي مُشْـرِق الْوَجْـهِ زَاهِيًـا وَأَقْبَـلَ شَـيْبِي كَـالِحَ الْوَجْـهِ كَابِيَـا

فقد أضحى المرض جرْس إنذارٍ للذات الشاعرة يثنيها عن غوايتها، ويقعد بها عن ارتكاب المعاصي، وقد جفَّ ريعان شبابها، وتبدلت عطاءاتها، إذ يقول(٣):

رَكَبْـتُ المعَاصِـي مَوْجَـةً ثُـمَّ مَوْجَـة وَأَقْعَـدني دَائِـي فَعفْـتُ المعَاصِـيَا

لم يُورِث **المشيب** الذات الشاعرة وهنًا في رؤيتها لمفردات الحياة من حولها، ولم يلبسها تعاسةً وكآبةً وجمودًا طاغيًا ممضًا، أما حدة الشباب فقد أورثتها فيوضاتٍ من المثابرة والقوة والمضي، وقد انقلبت عليها بعد أن خرجت من إهابها وهي في حِبَاء الموت، وقد أخذت تدلف إلى باحات الأبدية، وتتفيأ ظلالها الوارفة، وهي تجر رِياط الألم والأمل معًا. لقد اشرأبت عنقها وتطاولت لتقف على رسوم الضفة الأخرى من الحياة الأبدية حيث تلقي عصاها في مستقرها الأخير.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

٣- الحاضر- الشيخوخة:

يقف الملوحي بالمتلقي على العتبة الثالثة لرحلة الحياة ألا وهي (الشيخوخة) التي لم تَجُر على حبه البالغ للحياة، فقريحته فياضةٌ بالشعر، وهو يتعاطى مع عناصر الطبيعة من حوله، وتتكشف أمامه المتناقضات لتحدث حالةً قصوى من المفارقة، وتكشف الستار عن ماهية الحياة وجوهرها الذي يعبق بالأضداد، إذ يقول(١):

أُحِبُّ حَيَاتِي وَهْيَ كَالصَّابِ مُرَّة وَأَكْرَهُ مَوْتِي وَهْوَ كَالشَّهْدِ حَالِيَا
جُنُونِي أَصِيلٌ لَا أُرِيدُ فِرَاقَهُ وَعَقْلِي أَصِيلٌ لَا يُرِيدُ فِرَاقِيَا
صَحِبْتُهُمَا دَهْرًا مَعًا فَتَعَايَشَا وَكُنْتُ بِهَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ رَاضِيَا
جُنُونِي أَرَانِي المبْكِيَاتِ مَهَازِلًا وَعَقْلِي أَرَانِي المضْحِكَاتِ مَآسِيَا
وَمَا زِلْتُ فِي السَّبْعِين طِفْلًا تَشَابَهت رُؤَايَ، تَسَاوَى وَاقِعِي وَخَيَالِيَا

فالملوحي يصل إلى عتبات الشيخوخة مُحَمَّلًا بذخيرةٍ وافيةٍ من محبة الحياة على الرغم من مفارقاتها، فلن تصرفه نوازل الدهر عن التمتع بمفاتن الطبيعة واختلاس البهجة بين جنباتها، فنفسه ما زالت توَّاقة إلى التلذذ بمظاهر السعادة مهما صَغُرَت، فقيمة الحياة لا تُقَاس بجوانبها المادية، إذ يقول(٢):

وَقَالُوا: سَئِمْتَ الْعَيْشَ قُلْتُ: أُحِبُّهُ وَلَوْ كُنْتُ فِي كُوخٍ مِنَ الْقَشِّ ثَاوِيَا
أَصُوغُ أَحَاسِيسِي وَأَشْدُو قَصَائِدِي وَأَقْرَأُ فِي ضَوْءِ النُّجُومِ كِتَابِيَا
وَأَرْسِلُ صَوْتِي فِي الْفَلَاةِ مُدَوِّيًا وَأَضْحَكُ وَحْدِي فِي دُجَى اللَّيْلِ هَازِيَا

يقول خالد الجبر: (إذا كان الموت قدرًا محتومًا ولا حياة بعده، يغدو الامتلاء بالحياة الوسيلة الوحيدة لقهره والتغلب على حتميته، فالحياة حتميةٌ

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:9

أيضًا) [١] ومن ثم، فإن انصراف الملوحي إلى ذكر تلك المتع والملذات يُشَكِّل أداةً ناجعةً لمجابهة حدث الفراق الوشيك. إن الذات الشاعرة تصطدم في أخريات أيامها بواقعها، وتعاني خيبة آمالها، فهي لم تحقق أمانيها المشتهاة في هذه الحياة على الرغم من شهرتها ونجاحاتها، ويفتتح الملوحي نصَّه بتلك الثنائية (الحلم/ الواقع) التي تشكِّل عماد رؤيته للحياة، وتقف الذات في تلك الأثناء العصيبة والمراحل النهائية من مسيرتها لتعلن ذلك البون الشاسع بين قطبيها، فأمانيها العريضة قد تكسَّرت على صخرة واقعها، ولم يأن لها أن تتحقق، فأضحت أضاليل تعلن عن خيبتها، إذ يقول[٢]:

أضَعْتُ حَيَاتي لم أصعْها كَمَا اشْتَهَى ... ضَمِيرِي فَطَارَتْ في الرِّيَاحِ سَوَافِيَا

دَرارِي أَعْطَتْهَا الْحَيَاةُ كَرِيمَةً ... فَبَعْثَرْتُ فِي الصَّحْرَاءِ تِلْكَ الدَّرَارِيَا

أضِيئِي حَيَاتِي يَا شُمُوس سُوَيْعَةً ... فَلَمْ أَلْقَ قَبْلَ الْيَوْمِ إِلَّا المآسِيَا

ويقدم صورة جليةً لنفسه في تلك المرحلة التي خارت فيها قواه البدنية عبر عرضه للنقيض، وهم الأحفاد، إذ يقول[٣]:

أُسَرُّ بأحْفَادِي أزَاهِير غَضَّة ... وَيَرْثي لِيَ الأحْفَادُ أعْجَف بَالِيَا

غُصُونٌ تَسَامَتْ فَوْقَ جِذْعٍ مُحَطَّمٍ ... إذَا زَادَ يُبْسًا زِدْنَ هُنَّ تَسَامِيَا

أداعِبُهُم حِينًا فَأقصر لَاهِثًا ... وَتشغلهم أَلْعَابُهُم عَنْ عَنَائِيَا

إذَا رَكِبُوا ظَهْرِي حِصَانًا تَمَلْمَلُوا ... يُرِيدُونَ مُهْرًا ثَابِتَ الظَّهْرِ عَادِيَا

وَيَفْرَحُ أحْفَادِي إذَا كُنْتُ لَاهِيًا ... وَيَسْخَرُ أحْفَادِي إذَا كُنْتُ وَاهِيَا

إذَا رُحْتُ أحْكِي عَنْ شَبَابي تَمَلْمَلُوا ... وَلاحَ لَهُمْ وَجْهِي فَأَلْغَوْا شَبَابِيَا

(١) خالد الجبر، ورزان إبراهيم، شعرية الفقد (جدل الحياة والموت في شعر الخنساء)، ط دار جرير للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط١ ٢٠١٢م: ٣٢

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:12

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: 9

تَـرَاءَى زَمَـانٌ سَـوْفَ يُـدْعَى زَمَـانُهُمْ وَوَلَّـى زَمَـانٌ كَـانَ يُـدْعَى زَمَانِيَـا
وَأُسْـرِعُ فِـي سَـيْرِي وَأَنْسَـى مَـوَاجِعِي فَيُـوقِظُنِي مِـنْ عُنْـفِ سَـيْرِي لُهَاثِيَـا
فَأَقْعُـــدُ إِعْيَـــاءً كَـــأَنِيَ صَـــخْرَةٌ يَكُـرُّ عَلَيْهَـا السَّـيْلُ غَضْـبَانَ طَامِيَـا
وَأَبْحَـثُ عَـنْ رُكْـنٍ قَصِـيٍّ لَعَلَّنِـي أُلَمْلِـمُ جِسْـمًا ذَابِـلَ الْعُـودِ ذَاوِيَـا

فالمفارقة بينةٌ جليةٌ بين حال الشاعر وأحفاده لتميط اللثام عن دور الزمن وتحولاته وقدرته على تغيير مسار الأشياء، وقلب موازينها، وتغيير طبائعها وعاداتها.

المستقبل:

لطالما مثَّل المستقبل أطيافًا مشرقةً حالمةً ورديةً تشع بهاءً وسعادةً وأمنًا، وتجب سلب الماضي وتصلح عواره. لقد ابتنى الملوحي رثائه الاستباقي لذاته على قيمة (المفارقة) التي تنضح بها الأشياء والشخوص من حوله، فهي تُمَثِّل نواةً مركزيةً اتكأت عليها الذات في نسجها. وتبدو المفارقة في أوج صورها وذروتها حين تصف الذات انعدام تأثير موتها في دورة هذا الكون، فلن تتبدل قوانين الأشياء، ولن يتشح الكون بالسواد لفراقها، ولن يؤثر رحيلها في تسيار الكواكب، ولن تتعطل مسيرة حياة أولئك الشخوص الذين عرفتهم، إذ يقول(١):

وَيَسْـعَى إِلَـى الصَّـفِّ الصِّـغَارُ عَنَـادِلَا وَيَزْحَـفُ فِـي السُّـوقِ الْكِبَـارُ أَفَاعِيَـا

المستقبل الجمعي:

يقف الملوحي في مقطع بعنوان (ماذا بعدي؟) على عتبات المستقبل، تتمثل في رؤية الذات للعالم بعد رحيلها عنه، ليعلن في أولى أبياته عن اطراحه الدنيا رغمًا عنه، فهو خاضعٌ لتحولات الزمن التي انتهت بطاقاته وقواه إلى الذبول والتلاشي، إذ يقول(٢):

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:10

سَـلَوْتُ عَـنِ الـدُّنْيَا اضْـطِرَارًا وَعنْـوَةً وَأَصْـعَب شَـيءٍ أَنْ تَـرَى الْجَمْـرَ خَابِيَـا
يَحُـورُ رَمَـادًا قَـاتِمَ اللـوْنِ كَامِـدًا وَكَـانَ لَهِيبًـا يَـدْفئ النَّـاسَ وَارِيَـا

إن الذات الشاعرة التي أوشكت على الرحيل لا ترى في المستقبل امتدادًا للخسارة والبوار، ولكنها ترى فيه مخايل أوجه الحياة، فهو يفضي إلى تغيّرٍ جذريّ في مساراتها، وكأن ذلك الكوكب سيستحيل بعد تغييره، ونفض غبار الظلم عنه إلى كوكبٍ جديدٍ وضاءٍ فريدٍ يستأهل أن تكون تلك الذات الشاعرة فداءً له، إذ يقول(١):

غَـدًا يَطْلَـعُ الإِنْسَـانُ فـي الأَرْضِ كَوْكَبًـا تُبَـاهِي بِـهِ الأَرْضُ النُّجُـومَ الـدَّرَارِيَا
وَلَسْـــتُ أُبَـــالي أَنْ أَكُـــونَ فِـــدَاءَهُ أَمَـا كَانَـتِ الأَحْـرَارُ قَبْلِـي فِـدَائيَا

إن تلك الذات لن تقصر آمالها في غدٍ مشرقٍ عند حدود زمنيتها القاصرة المحدودة فحسب، فهي ترقب ذاك التغير في أي زمانٍ، ولا تشترط وقوعه في حياتها، فسعادتها ليست مشروطةً بتحققه في عالمها الأرضي حال حياتها، إذ يقول(٢):

إِذَا مَـا طَـوَانِي المـوْتُ قَبْـلَ انْبِلَاجِـهِ فَحَسْـبِيَ أَنِّـي كُنْـتُ للرَّكْـبِ حَادِيَـا

فالذات الشاعرة تنخلع من ربقة الذاتية والأنانية، وترى خيريتها وسعادتها في مساعدة الآخر، فهي الحادي الذي قاد مسيرة تقدمه وتحرره. إن ضدية تلك الثنائية تكمن في التحقق والحضور وليس الإطار الزمني، فهي لن تهنأ بتحقيق أحلامها ما دامت حية، وستتحقق تلك الأمنيات بعد أن تغادر عالمنا الأرضي، فالذات الشاعرة يكفيها أنها قد قدحت زناد الثورة، وكانت الحادي لركب التقدم والبناء.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:11

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

المبحث الرابع

صورة (الآخر) في شعر الملوحي

يتمثل (الآخر) حسْب تعريف (المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة) في (المغاير في الماهية، ويقابله الأنا، والاثنان يتمثلان في الوعي، وكلما زاد الوعي كلما زاد الإحساس بالأنا والآخر، والآخر المقصود هو الغير ليس كما هو في الواقع، وإنما كما أعيه أنا) (١)

إن ذلك الإرث الفني الذي خلفه (عبد المعين الملوحي) ومن شاكله من المبدعين المأزومين يتجاوز أعتاب البوح والتخييل الذاتي ليقدم فضاءً أرحب وأشمل يتأسس على رغبةٍ متناميةٍ في التواصل والتفاعل مع الأجيال التالية التي أخذت على عاتقها مهمة تحقيق طموحات أولئك الراحلين وأحلامهم على أرض الواقع الذي لم يبلغوه، فإذا كان الموت سيفرض بشكلٍ حتميّ قاسٍ تلك القطيعة الزمنية، فإن ذلك الإرث بمقدوره أن يخلق جسورًا متناميةً ممتدةً تأبى التحول والتلاشي، لقد مثَّل الشعر آلتهم التي يتجاوزون بها قصور بشريتهم، فلم تمثل غواية الإبداع مسلكًا لمزالق الانهيار والتفتت والسلب، بل شكلت بدورها تعويذة الخلود وتميمة البقاء.

ويبدو حضور **(الآخر)** حضورًا فاعلًا وقويًّا في القصيدة موضوع الدرس، فعندما انْبَثَّتْ في قلب الملوحي مشاعر الفراق الأليم، وذهبت نفسه لماعًا، وقف على الشاطئ الآخر من نفسه يرقب ذاك "الآخر" الذي ناوش خطابه الشعري، وتردد ظهوره بشكلٍ لافتٍ، فلم ينفصم الشاعر عنه، وقد رأى فيه وشيجةً له مع

(١) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: ٢٩

مستقبله المفقود، وضمانةً فاعلةً لقصور عمره الذي يرزح تحت وطأة الزمنية، ومعاول التغيير والفناء والسلب. يقول عبد المعين الملوحي(١):

وَكُنْتُ شُعَاعًا مِن أَشِعَّةِ نُورِهِ يَشُقُّ سِتَارَ اللَّيْلِ أَسْوَد دَاجِيَا

لقد كان ذلك"الآخر" هو الأداة الفاعلة لإيجاد مسارب الأبدية، والرهان على المستقبل الناجع الذي ستلتمع فيه أبرق رؤاه، وستنهض فيه أحلامه بعد أن حُشِد عليه الهم والألم، فلم تخلق منه تلك التجربة جزيرةً منعزلةً يؤطِّر وجودها الصمتُ، بل بلغ تفاعله مع ذلك "الآخر" أقصى غاياته المرجوة، يقول الملوحي(٢):

رَفَعْتُ لِوَاءَ الْفِكْرِ سِتِّينَ حِجَّةً فَمَا ضَمَّ إِلَّا الْكَادِحِينَ لِوَائِيَا

هُمُ عُدَّتي فِي النَّائِبَاتِ وَأَسْرَتِي أَقُودُ بِهِمْ جَيْشًا عَلَى الْبَغْيِ ضَارِيَا

لعل الملوحي قد تَبَلَّغ بالقليل من أيامه المتبقية في الحياة، وراح يبث "الآخر" وصاياه، ويطاول بأحلامه فيها أعنة السماء، وإن لم تسعفه أيامه وأنفاسه، فلم تُطفئ تلك التجربة أُوار حماسته، وما اسْتَعْدَت على طاقاته المتفجرة بالحياة، ولم تغتل بسماته، ولم يكتنف ذلك "الآخر" في كيانه مشاعر السلب والعداء والازدراء، ولم تنفصم عرى التواصل بينه وبين لاحقيه، فأولئك اللاحقون قد تخَلَّقُوا في رحم الحاضر الذي يعاني ويلاته.

لقد أضحى فتيت قلبه الذي تكسر على صخرة الفراق الوشيك فلذاتٍ تشع أرقًا وألمًا، فكأنها كواكب نائرة في سماء الإبداع، فقد اخترق الملوحي حجب الزمان والمكان المستقبلي عندما أبدع تلك الكلمات في غمار أزمته، وقدمها لمن ليسوا في زمنه، ولم تجعل تلك التجربة منه فُرَدَةً منْطوٍ عن الناس، بل أكدت –

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

بدورها- على انخراطه وتمازجه مع معطيات واقعه وآمال مستقبله، فلم تخر قواه، ولم تلن عريكته جراء خوض تلك التجربة القاسية، يقول الملوحي[١]:

يَسُـرّ المعَـالي أنْ نَخُـوضَ غِمَارَهَـا وَنُبْـدِعُ إنْسَـانَ الْحَضَـارَةِ رَاقِيَـا

مَضَـى عَهْدُ وَحْشٍ أفْسَدَ الأرْضَ جَاهِلًا وَأقْبَلَ عَهْدٌ يُصْلِحُ الأرْضَ وَاعِيَا

لم تنقطع به سبل تجربته عن التواصل مع "الآخر"، فقد حملت كلماته الأخيرة إليه فيضًا من الرسائل، فقد ارتسم المستقبل بعيونه الشاعرة زَخَمًا من الأمنيات التي تتطلع إلى غدها المشرق على يد ذلك "الآخر"، ولم تنطفئ جذوة حمَاسته أمام شبح الموت.

ثنائية (الأنا/ الآخر):

برزت تلك الثنائية بجلاءٍ ووضوحٍ بالغين في نص الملوحي، فقد شكلت الذات الشاعرة نواةً أثمرت بدورها العديد من العَلاقات والشخوص الفاعلين إيجابًا وسلبًا في حياة الملوحي، فأولئك الأحرار هم حلقةٌ واحدةٌ تتفق في المسعى والهدف مهما اختلفت أزمانها.

والسؤال الذي يُطْرَح في هذا السياق هو:

- كيف توزعت لغة الخطاب الشعري في تلك التجربة الإبداعية الفريدة بين"الأنا" و"الآخر"؟

إن الذات الشاعرة في قصيدة الملوحي تبرز في غاية الفخر والاعتداد البالغ بنفسها وفكرها الجرئ ومواقفها القوية الصارمة وصيحاتها العالية التي لم تنقطع أبدًا طيلةحياتها لتنادي بالحرية والعدالة، فلقد آزرت أصحاب الحقوق

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

وناصرتهم وقاسمتهم همومهم وآلامهم وأوجاعهم، واتخذت موقفًا مضادًا من أعدائهم، إذ يقول(١):

وَعِشْتُ اشْتِرَاكِيًّا إِذَا جَاعَ جَائِعٌ أُحِسُّ لَهِيبَ الْجُوعِ يَفْرِي فُؤَادِيَا
وَإِنْ ثَارَ فِي الأَرْضِ الْعَبِيدُ وَجَدتَنِي نَصِيرًا لِزَحْفِ الثَّائِرِين موَالِيَا
وَإِنْ أَرْهَقَ الشَّعْبَ الطُّغَاةُ رَأَيْتَنِي عَلَى كُلِّ طَاغٍ فِيهِ أَنْقَضُّ بَازِيَا

فقد بلغت الذات الشاعرة غاية العطاء لذاك الآخر، ووصلت إلى أقصى درجات التماهي معه، فوهبت عيونها لتلك الشعوب لتمنحهم بصيرةً نافذةً ببواطن الأمور ومجرياتها، وانطلق لسانها بالأشعار التي تمجد بطولات تلك الشعوب الثائرة ضد الظلم والعدوان والاستبداد، فهي تضحي بحياتها ودمائها فداءً لذاك الآخر، يقول الملوحي(٢):

وَأُتْرِعُ سِفْرَ الثَّائِرِينَ مَآثِرًا وَأَمْلَأُ أَسْفَارَ الْغُزَاةِ مَخَازِيَا

أولًا: الآخر الإيجابي:

لعل تحقق الذات الشاعرة يكمن في نصرة الآخر ومؤازرته، فالملوحي يرى في دعمه ذاك الآخر العربي في قضاياه وإشكالياته قوةً تُجَاوِز حدود فرديته، فهو يستحيل أداةً طاعنةً في جسد أولئك الطغاة الغاشمين، فالذات الشاعرة تتفانى في خدمة ذاك الآخر في حال ثورته العارمة ضد الظلم والاستبداد، وتجعل من شعرها بوقًا يكرس مآثر الثوار، وينافح عن قضاياهم، ويندد بأولئك المعتدين. ولعل من الملاحظ أن ذلك الأخر الإيجابي يبدو في القصيدة في دائرة **(البعيد)** الذي لا يرتبط مع الشاعر بصلة دمٍ أو قرابةٍ، ومن بين تجلياته:

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

أ- المرأة الثكلى:

وتبدو (المرأة الثكلى) مفردةً أنثويةً مترعةً بالإيجاب، تُولِي تلك الذات الشاعرة بعد رحيلها الشفقة والعطف، فتلك المرأة التي فُجِعَت برحيل أحبائها سوف تعطف على قبر ذاك الغريب، وتهديه غصنًا ضاويًّا من زهرة الآس لتبدو مثالًا على ذاك الفيض الأنثوي الذي يغمرها في حياتها ومماتها بالاهتمام والحنان والدفء، إذ يقول(١):

إِذَا مَـرَّتِ الثَّكْلَـى بِقَبْـرِي تَوَجَّعَـتْ فَأَهْدَتْ لَـهُ غُصْنًا مِنَ الآسِ ضَاوِيَا

عَلَى قَبْرِيَ المهْجُورِ تَبْكِي حَبِيبَةُ إِذَا لَـمْ تَجد م الأَهْلِ وَالصَّحْبِ بَاكِيَا

ب- المفجوع:

قد يحرم الشاعر من أقربائه، ويعتاض عنها بزهرةٍ يلقيها على قبره غريبٌ مفجوعٌ، فذاك الغريب هو الذي يهديه العطر والسوسنة، يقول الملوحي(٢):

وَيَعْبُرُ مَفْجُوعٌ فَيُلْقِي بِزَهْرَةٍ تُعَطِّرُ أَحْجَارَ الضَّرِيحِ لَيَالِيَا

فإن ذلك المفجوع يهديه برًّا حال مروره، ولا يفعلها الغريب الذي طعم خيره، في إشارةٍ إلى المفارقة التي تحملها الأيام في حالة الحياة والممات، فالحياة لا تتنازل أبدًا عن كيل المتناقضات لنا.

ج- الكادحون:

ولعل أولئك الكادحين هم خير من يتعاطى مع تلك الذات الشاعرة التي أرَّقها البغي، وقض مضجعها الجور، فهم خير رفقةٍ عندما تعصف الحياة بها، إذ يقول(٣):

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

رفعت

رَفَعْتُ لِوَاءَ الْفِكْرِ سِتِّينَ حِجَّةً فَمَا ضَمَّ إِلَّا الْكَادِحِينَ لِوَائِيَا
هُمُ عُدَّتي فِي النَّائِبَاتِ وَأَسْرَتِي أَقُودُ بِهِمْ جَيْشًا عَلَى الْبَغْيِ ضَارِيَا

لقد تبدَّى ذاك الآخر في هيئة الرفيق الثوري الذي شارك الذات الشاعرة سني حياتها وذكرياتها وأفراحها وأتراحها، يقول الملوحي[١]:

وَهَبْتُ عُيُونِي لِلشُّعُوبِ بَصِيرَةً وَيعْمِي عُيُونَ الغَاصِبِينَ رَمَادِيَا
وَعَلَّقْتُ فِي جِيدِ الْغُرُوبَةِ شِعْرَهَا وَآدابها عقْدًا تَلألأ غَالِيَا

فأولئك الرفاق قد اتصلت أمشاجهم، وجمعت بينهم ماسةُ رحم الإبداع، وأفرزتهم الظروف العصيبة ذاتها التي شكلت وعيهم الجمعي.

د – الأحرار:

سوف يتأسَّى أولئك الأحرار لفقد الشاعر، فقد شكل مكونًا أصيلًا في لحمتهم وسداهم، إذ يقول[٢]:

وَداعًا بني الدُّنيَا وَدَاعَ مُسَافِرٍ إِذَا مَا شَجَا الأَحْرَارُ يَوْمًا فِرَاقِيَا

إن ذاك الشعور القومي الجارف الذي اعتمل في نفس الملوحي قد مثَّل الطنب الذي تشد به خيمة نفسه في غضون تلك التجربة، وقد أضحى أولئك الكادحون خير عدةٍ له يخوض بهم حربًا ضاريةً على الظلم والعدوان.

ثانيًا: الآخر السلبي:

يتبدى الأخر السلبي في محيط الشاعر في دوائر عدةٍ، ولعل من أهمها (الدائرة القريبة)، فذلك الآخر القريب الذي أعده الملوحي ليكون ذخيرةً له ومتكأً في الشدائد قد أضحى مجافيًا له، ناكرًا لجميل صنائعه.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

أ- الأهل والصحاب:

بدا ذاك الآخر السلبي في صورة أولئك الأهل والصحاب الذين سينسون ضريحه مثلما نسي –هو الآخر– قبور غيره، ليجسد مفارقةً بالغةً بين تلك الروابط المتينة في الحياة، ومآلها بعد الممات، إذ يقول(١):

غَدًا سَوْفَ يَنْسَى الأَهْلَ وَالصَّحْبَ حُفْرَتِي كَمَا أَنَا في الماضي نَسيتُ رِفَاقِيَا

ب- الحبيب:

بدت الأنثى في تلك التجربة المريرة مفعمةً بالحيوية والمشاعر، تغدق عليها الذات الشاعرة عواطفها ، وتحيطها بالحب، فالذات الشاعرة قد توحدت بتلك المحبوبة، فهذا الحب هو أكسير الحياة، وهو وحده الذي يُوجِد الإيقاع، فتلك العَلاقة التبادلية بين (الشاعر/المحبوبة) تُخْتَتَم بالتساؤل عن قَبول الآخر بقايا عطائه في حال كهولته، فهو قد منحها الحب والسعادة الغامرة، وهي قد وهبته الأنوثة عطر الحياة، لترجع الذات الشاعرة القهقرى وتلتحف بالذكرى والأمس بعد شيخوختها ومرضها، يقول الملوحي(٢):

رَكِبْتُ المعَاصِي مَوْجَةً ثُم موجةً وَأَقْعَدَني دَائي فَعِفْتُ المعَاصِيَا

سَقَيْتُ الصَّبَايَا مَاءَ حُبِّي وَصَبْوَتِي وَجَفَّ، فَهَلْ يَقْبَلْنَ مَاءَ حَنَانِيَا

وتبدو تلك الذوات الأنثوية جميعها بتشكلاتها المختلفة في قالبٍ مفعمٍ بالحياة، فكلهن قد عمدن إلى منح الذات الشاعرة شعور اللذة والفورة والسعادة، وأخذن بيديها في مضايق الحياة، فهل يربتن على كتفها في غضون تجربتها الأخيرة في الحياة، وهي على مشارف الأبدية، ويقبلن منها الضعف والانحسار عما اعتدن عليه في زمان الفتوة والشباب؟

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

ج- التلاميذ:

مثَّل أولئك التلاميذ كياناتٍ مفعمةً بالسلب في ذهن الذات الشاعرة، فقد حرموه البر والوفاء، لتكمن المفارقة بين حالتي: الأخذ والعطاء، لتميط اللثام عن حقيقة هذه الدنيا الخادعة الغرورة، إذ يقول(١):

غَرَسْتُ غِرَاسًا وَانْتَظَرْتُ ثِمَارَهَا فَلَمْ تَّعْطِ إلَّا الشَّوْك صَلْدًا غِرَاسِيَا
إلَى اللهِ أشْكُو مَنْ رَعَيْتُ عُهُودَهُمْ فَلَمْ أَرَ مِنْهُمْ فِي المُلِمَّاتِ رَاعِيَا
تَلاميذ عَقُّوني مَريضًا فَلَيْتَ لِي بِأَفْضَلهم كَلبًا يُبَصْبِصُ وَافِيَا
غَدًا سَوْفَ يَبْكُونَ (المعَلِّمَ) جُثَّةً وَقَدْ صَارَ عَظْمًا فِي المقَابِرِ عَافِيَا

فهم في نظره قد عقوه وتناسوا جميل صنيعه معه، وبرزوا في ثوب ناكر الجميل.

د - الأحفاد:

أولئك الأحفاد يقفون –في بعض الأحايين– موقفًا سلبيًّا من الذات الشاعرة تفرضها عليهم حداثتهم ورعونتهم، إذ يقول(٢):

وَيَفْرَحُ أحْفَادِي إذَا كُنْتُ لَاهِيَا وَيَسْخَرُ أحْفَادِي إذَا كُنْتُ وَاهِيَا
إذَا رُحْتُ أحْكِي عَنْ شَبَابِي تَغَامَزُوا وَلَاحَ لَهُمْ وَجْهِي فَألْغوا شَبَابِيَا

إن أولئك الأحفاد في ريعانهم ورعونتهم ليبرزوا نقيض حال تلك الذات الشاعرة التي ذوى عودها، وفترت قوتها، وتَرَنَّقَ ماء شبابها، حتى أضحت سيرتها الأولى في أعين هؤلاء الصغار ضربًا من الترهات.

هـ- الخصم:

لم يتبدد في مرثية (الملوحي) حضور ذاك الآخر (الخصم)، وقد ألجأ الموتُ الذات الشاعرة للتهويم في مدارات قضايا ذاك الآخر وإشكالياته، ومن ثم،

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

فلم يتبخر (الخصم) من بنية تلك القصيدة، فحضوره بالغ القوة عندما تلج الذات في مدارات الفقد والرحيل، فالذات الشاعرة مفعمةٌ بروح المواجهة والحماسة معه، فلا مجال للاستكانة واطِّرَاح القضايا في رحاب تلك التجرِبة التي تكشف النقاب عن حقيقة الحياة. وقد يبدو في هيئةٍ عدائيةٍ تتنافى مع طبيعته السمحة الفيَّاضة بالخير والعطاء والمحبة، يقول الملوحي(١):

وَأَتْــرِعُ سِـــفْرَ الثَّـــائرِينَ مَـــآثِرًا　　　وَأمْـــلأ أسْـــفَارَ الْغُـــزَاةِ مَخَازِيَـــا

لقد أضفى الرحيل عليه مذاقًا حادًّا في مجابهة ذاك الآخر، ونكهةً مائزةً في التصريح عن مساوئه ونواقصه، فلم تتعثر خطى الذات الشاعرة في مواجهته عند الرحيل عن دنيانا، بل تواصلت معه تواصلًا صريحًا واجهته فيه بكامل وعيها وقوتها وجرأتها، فلم ينسف ذلك الاقتراب المتذبذب أمنها وسكينتها، ولم يُلْقِ بها في مهالك الشقاء، ولم تخر قواها، أو تنطفئ جذوتها، أو تضعف همتها وهي تميط اللثام عن شروره.

لقد منحت تلك التجربة الشاعر آفاقًا ممتدةً من البوح، وكَسَرَتْ قوالب الصمت وجُذُره، وفَضَّت مغاليق الاحترازات المستكنة في العقل الجمعي، فالملوحي أخذ يرسم خارطة وطنه العربي بعد رحيل ذاك الآخر (الخصم)، وَيُلَوِّنُ أيامه بألوانٍ زاهياتٍ مشرقاتٍ، إذ يقول(٢):

إذَا لَمْ أجِدْ في عَالَمِ الْيَوْمَ مَطْمَعِي　　　فَفِـي الْعَـالَمِ الآتِـي السَّـعِيدِ رَجَائيَـا

فلم يكمم اقتراب الرحيل فاه، ولم يقنع بممالأة ذاك (الآخر) رغبةً أو رهبةً، بل أسس نصه على الجَرأة ومكاشفة (الآخر) بمساوئه ونواقصه، إذ يقول(٣):

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

وَأَوْمَـــأْتُ إيمَـــاءً لمحْنَـــةِ أمَّتـــي عَسَـى يَتَقَصَّـى الأَذْكِيَـاءُ المغَازِيَـا
أَقُـولُ وَقَـدْ شَـدُّوا لِسَـانِي بنسـعَةٍ: أَمَعْشَرَ قَـوْمِي أَطْلِقُـوا مِـنْ لِسَـانِيَا

أما فيما يختص بمحيط الشاعر ومجتمعه، فتتبدى حينئذٍ ثنائية (الماضي/ الحاضر)، فالماضي يحمل آفاق السلب والجهل والطغيان التي أشاعها أولئك (الوحوش) الغاصبين، أمَّا الحاضر فهو يحمل بذور الإيجاب والمغايرة للواقع الراهن، ويبشر بعهدٍ جديدٍ وضاءٍ ترفرف فيه رايات الحرية والحق والعدالة التي طالما حلموا بها، فالماضي قد استأهل الثورة على معطياته السالبة.

ثالثًا: الأنا:

إن (الآخر) هو مرآة الذات التي تكشف تفاصيلها وتاريخها وتمحوراتها، فينجلي فيها صورةٌ تامةٌ لها. والسؤال الذي يُطْرَح في هذا السياق:

هل تضعضعت رؤية الملوحي لذاته في غمار تلك التجرِبة؟

لقد كشفت تلك الذات عن نفسها عبر جملةٍ من الثنائيات الضدية التي توضح معالمها وطباعها وتضاريسها النفسية، تقول سمر الديوب: (الثنائيات الموجودة في الحياة ليست ثنائيات دوغماتية، بمعنى أن الحدود قائمةٌ بين طرفيها. فثمة حق/ باطل، وخير/ شر، الثنائيات أيديولوجية، وفهمها فهمًا دوغماتيًّا يعني أنها تَصْدُر عن الوعي المطلق والنهائي واليقيني، وبذلك يصعب تطبيقها على واقعٍ تحكمه النسبية المرتبطة بتعقيدات الواقع، والحديث عنها يعني حديثًا عن توازي الثنائيات، وسير طرفيها جنبًا إلى جنبٍ معًا) [(١)]،

وقد ذهب (فرج عبد القادر طه) إلى أن الأنا (يتكفل دون الهو بالدفاع عن الشخصية وتوافقها مع البيئة، وحل الصراع بين الكائن الحي والواقع، أو الحاجات المتعارضة للكائن الحي، وينظِّم الوصول إلى الشعور وإلى التعبير الحركي،

(١) سمر الديوب، الثنائيات الضدية (بحث في المصطلح ودلالاته)، ط المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، ط١ ٢٠١٧م: ٣٦

ويضمن الوظائف التنسيقية للشخصية) [١] . لقد اتسمت الأنا بجملةٍ من الصفات التي أبانت عنها مجموعةٌ من (الثنائيات الضدية)، فالملوحي:

-متوازن:

ولعل الاعتدال هو من بين أبرز تلك السمات التي اتضحت عبر عرض الذات الشاعرة ثنائية (الخير/ الشر) التي أبانت بها عن معدنها، فهي لم تسم نفسها بميسم المثالية والكمال، ولكنها تجنح إلى الاعتدال، وتوازن بين شرها وخيريتها، فلقد سبرت أغوار نفسها، وأزاحت الستار عن مكنونها، وأماطت اللثام عن بواطنها، فإذا بها تقف على محجة طريق التعامل الأمثل مع الحياة، إذ يقول[٢]:

وَأَجْـنَحُ أَحْيَانًـا إِلَـى الشَّـرِّ وَالأَذَى فَـإِنْ كِـدْتُ أَغْشَـاهُ ذَكَـرْتُ حَيَائِيَـا
وَأَصْبر أَحْيَانًـا وَأُغْضِـي عَلَـى الْقَـذَى فَيَعْصِفُ بِـي عَصْفَ الرِّيَـاحِ إِبَائِيَا
وَمَا أَنَا مَنْ يَبْكِي عَلَى النَّاسِ حَاقِدًا وَلَكِنَّنِـي أَبْكِـي عَلَـى النَّـاسِ حَانِيَـا

فالشاعر اتسم بالاعتدال في اتجاهاته ونوازعه، وكذلك في استقباله المنح والابتلاءات، إذ يقول[٣]:

وَلَـمْ تَرَنِـي النَّعْمَـاءُ أَشْـمَخَ جَاسِـيًا وَلَـمْ تَرَنِـي الْبَأْسَـاءُ أَخْشَـعَ جَاثِيَـا

فالملوحي قد كان متوازنًا في ردود أفعاله ومواقفه إزاء الأحداث الجوهرية في الحياة في إشارةٍ إلى رجاحة عقله.

- معطاء:

برزت صفة العطاء عبر ثنائية (الأخذ/ العطاء)، فتلك الذات الشاعرة تستشعر سموها في بذلها حياتها فداءً لأمتها، فسعادتها الفردية تنمحي أمام

(١) فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، ط١: ٦٣

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

تلك المصائب التي مُنِي بها المجتمع العربي، فنفسها مترعةٌ بالتفاؤل والعفة والقناعة إذ يقول(١):

وَعِشْتُ عَفِيفًا رَاضِيَ النَّفْسِ قَانِعًا يَرَانِي صِحَابِي نَاعِمَ الْعَيْشِ ضَافِيَا
خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا شَذًى فَاحَ فِتْرَةً وَطَيْرًا عَلَى سِكِّينِهِ ظَلَّ شَادِيَا

ولعل ثنائية (الأخذ/ العطاء) هي أكثر الثنائيات حضورًا في قصيدة الملوحي، فالذات الشاعرة تغدق عطاءها على الآخر، وترى في صنيعها نماءً لذاتها وخيريتها مع ذاك الآخر، وتعضيدًا لأواصر المودة معه وهي تقف بالمتلقي على أوجه ذلك العطاء الثر الذي افتنت في تقديمه، إذ يقول(٢):

تَعَوَّدتُ أنْ أعْطِي وأسْقِيهُمُ دَمِي وَحَسْبُكَ جُودًا أنْ تَرَى الدَّمَ سَاقِيَا
وَلَمْ أتَرَقَّبْ حِينَ أعْطِي عَطَاءهُمْ كَفَانِيَ أنِّي مَا حَجَبْتُ عَطَائِيَا
إذَا كُنْتُ أبْغِي مِنْ عَطَائِي عِلَاوَةً فَلَسْتُ إذَنْ فِي الْخَيْرِ إلَّا مُرَابِيَا
أصَالَةُ نَفْسٍ لَا تَضِنُّ بِنَفْسِهَا تَدَفَّقَ مِثْلَ النَّبْعِ أزْرَقَ صَافِيَا
وَلَيْسَ يَطِيبُ الْجُودُ إلَّا إذَا سَمَا عَنِ المنِّ، بَلْ أمْسَى مِنَ الشُّكْرِ خَالِيَا

إن الذات الشاعرة تستشعر سموها في عطائها المتدفق لذاك الآخر، فهي تمنحه الدم بأريحيةٍ ومحبةٍ واقتدارٍ دون أن تنتظر منه مقابلًا لصنيعها.

- **ثوري:**

كان الملوحي جموحًا في عواطفه وثورته على أنظمة الفساد والطغيان والاستبداد في مجتمعه. إذ يقول(٣):

وَأُثْرِعُ سِفْرَ الثَّائِرِينَ مَآثِرًا وَأَمْلَأُ أسْفَارَ الْغُزَاةِ مَخَازِيَا

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢
(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢
(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

مثابر:

إن الملوحي يتسم بالمثابرة ومضاء العزيمة، فلم ينكسر من شدة الضربات التي تلقاها في حياته، وظل محافظًا على سمته، إذ يقول(١):

وَأَعْجَبُ أَنِّي مَا فَقَدتُ تَفَاؤلي وَأَنِّيَ أَبْنِي فِي الرِّمَالِ المبَانِيَا

عفيف:

اتسم الملوحي بالعفة والقناعة، فنفسه تواقةٌ إلى المعالي والعلم، ولم تأبه بالمادة والمناصب والغنى، إذ يقول(٢):

وَعِشْتُ عَفِيفًا رَاضِي النَّفْسِ قَانِعًا يَرَانِي صِحَابي نَاعِمَ الْعَيْشِ ضَافِيَا

- **صبور:**

كانت حياة الشاعر عبد المعين الملوحي ملأى بالمتاعب والأزمات العاصفة والشدائد التي زادته قوةً وحنكةً وخبرةً وإيمانًا، إذ يقول(٣):

صَبَرْتُ عَلَى حُلْوِ الزَّمَانِ وَمُرِّهِ فَلَأَيًا تَسَاوَى جُورُه وَاصْطِبَارِيَا

فتلك المآسي التي اصطلى بنارها لم تنتقص من صبره وقوته، بل أفاضت عليه مسحةً إيجابية وحنكةً، ومن ثم، فإن الأنا الواحدة قد تمظهرت في أنواتٍ عدةٍ حسْب مراحلها العمرية وخبراتها وتجاربها، لتبدو في مرحلة الشباب جامحةً طموحةً تواقةً إلى الملذات، وهي –في الوقت نفسه– جادةٌ دؤوبةٌ في عملها، وتتجلى في مرحلة كهولتها أنًا معتدلةً تسير برويةٍ في درب حياتها، لتنتهي في شيخوختها إلى كونها أنًا مفعمةً بالخبرة والرزانة والوعي والحكمة.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

المبحث الخامس

الملامح الأسلوبية والتصويرية في قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه)

اتسمت الدلالات التي أفرزها نص يائية (عبد المعين الملوحي) بالوضوح النسبي دون أن تحجبها أطرٌ شفيفةٌ يفض المتلقي مغاليقها بصعوبةٍ، فلم تكن أبيةً عصيةً على التأويل، فقد اتكأ الملوحي في نص رثائه الاستباقي لذاته على ألفاظٍ موحيةٍ بعيدةٍ عن التقعر والخشونة، لتتناسب وطبيعة قصيدته التي تعد في مجملها كشفًا ختاميًّا عن مسار حياته ومجرياتها وفلسفته فيها، وقد فرض عليه موضوعها ذلك النهج الذي يحتم الانصراف عن التقعر، يقول إبراهيم الحاوي تعليقًا على القصيدة اليائية لمالك بن الرَّيْب: (لاشك في أن موضوع القصيدة – وهو رثاء النفس– من أقوى الأسباب التي صرفت الشاعر عن الوحشي من الألفاظ، والغريب من المفردات، فالشاعر في حالةٍ تتطلب أن تنطلق النفس على سجيتها، وتقبل ما ينثال عليها دون تحكيكٍ أو إعمال نظرٍ. ثم إذا كان شعر الرثاء –بعامةٍ– يتطلب الألفاظ السهلة المالوفة، فإن رثاء النفس أكثر حاجةً إلى ذلك) [1]ومن ثم، جاءت ألفاظ قصيدة الملوحي مألوفةً بعيدةً عن الصعوبة، متناسبةً مع غرضها الشعري.

ولعل من بين أبرز الملامح الأسلوبية في مرثية الملوحي هي:

١ – الأضداد:

لقد زخر نص (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) بجملةٍ من الأضداد، نحو (الموت/ الحياة)، و(اللهو/ الجد)، و(أرقد/ أنهض)، و(حليمًا/ غاويًا)، و(مدائح/ أهاجي)، ولعل عبقرية ذلك الإبداع الفريد يكمن في احتشاد تلك المتضادات في

(١) إبراهيم الحاوي، رثاء النفس بين عبد يغوث بن وقاص الحارثي ومالك بن الريب التميمي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٨٨م: ٢٦

عملية الخلق الفني، فالموت بما له من أبعادٍ سالبةٍ يتضافر مع الحياة بحمولتها الإيجابية، ولكن الدلالات سرعان ما تتبدل في أتون تلك التجربة، فالشاعر يقف على أعتاب الموت، ويقرر ممارسة إبداعه بلا توقفٍ، فالموت يصبح أيقونة الحياة، والحياة تستحيل إلى دالةٍ مطابقةٍ لمعاني الفقد والفناء، فالملوحي يقف مليًّا متأملًا الظواهر الطبيعية الصاخبة التي تكفَّ عن سيرورتها ودورانها بعد رحيله عن الدنيا، ليضع أمام المتلقي جملةً من الثنائيات، مثل: (الحركة/ السكون)، و(الحياة/ الموت). فالحياة ستبدو صاخبةً بعد موته.

وتبدو تلك الثنائيات الضدية جليةً بارزةً في وصف الشاعر لذاته، فهو يمنح المتلقي صورةً شفيفةً عنه عبر تلك الثنائيات التي مر عرضها.

٢- **التَّكرار**:

عمد الملوحي إلى تكرار بعض المفردات تأكيدًا منه على شعور الغربة والفقد الذي يعانيه في تجاربه العسيرة، فيكرر لفظة (الغضا) مقتفيًا في ذلك الصنيع خطا (مالك بن الريب) في قصيدته اليائية، فيلجأ الشاعر إلى تكرار ألفاظٍ، نحو: (الغضا/ الأضاليل/ الأماني) في دلالةٍ على المأساة والمفارقة التي يصطلي الإنسان بنارها.

ويكرر **الاسم**، نحو: لفظة (الشِّعر)، فيقول: (إذا كان شعري/ كل شعري)، فتكرار لفظة الشعر يعمل على إثبات حالة الشمول، وعدم الخروج عن نسق الرثاء الذي استحوذ على جملة نتاجه الشعري.

ويكرر **الفعل** (تذبل)، إذ يقول: (تذبل الأرواح/ تذبل الأزهار) في إشارةٍ إلى هذا التطابق بين (الأرواح/ الأزهار)، فكلاهما يحتاج للسقيا والرعاية والاهتمام.

ويكرر الفعل (يرني/ ينسني) في إشارةٍ إلى الثبات على موقفه واحتفاظه بعاداته وتقاليده وطبائعه التي لا تتبدل أبدًا.

وقد يلجأ الملوحي إلى تكرار **الأساليب**، إذ يقول[١]:

رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوجَ الرِّيَـاحِ غَـدًا إِذَا تَـبَلَّجَ نُـورُ الْفَجْـرِ أَرْحَـلُ غَادِيَـا

رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوجَ الرِّيَـاحِ تَرَيَّثِـي سَـأَرْحَلُ وَالـدُّنْيَا سَـتَبْقَى كَمَـا هِيَـا

فالملوحي يعمد إلى تكرار (رويدك يا هوج الرياح)، فهو لا يملك القوة لمجابهة عصفها وتغييرها، وهي عازمةٌ على الإطاحة به.

٣- الحوار:

عقد الملوحي حوارًا شفيفًا لمَّاحًا مع جملةٍ من الشخوص ترسَّم فيه خطى سابقه (مالك بن الريب) أبان به عن مبادئه ومعتقداته، ويقف في طليعة مخاطَبيه (مالك بن الريب) الذي افتتح الملوحي قصيدته بحوارٍ شفيفٍ معه ينبئ عن مقدار السلب وخيبة الآمال والمسعى في هذه الحياة.

وقد عقد الشاعر حوارًا في غير موضعٍ مع أولئك (الأصحاب) الذين وقفوا منه موقف النقيض مفندًا مزاعمهم واتجاهاتهم، ومنها -على سبيل المثال- زجرهم إياه عن رثاء نفسه، إذ يقول[٢]:

أَقُـولُ لأَصْـحَابِي: كَفَـاكُمْ مَلَامَـةً عَلَـى نَفْسِـهِ فَلْيَبْـكِ مَـنْ كَـانَ بَاكِيَـا

فهو يقطع السبيل أمام تلك الصحبة الزائفة التي تمنعه من إفراغ شحنته العاطفية الحزينة، ويقف منهم موقفًا صريحًا قاطعًا. ويبدو الحوار كذلك مع تلك (الرياح الهوجاء) إذ يقول: [٣]

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢) عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوجَ الرِّيَـاحِ غَـدًا إِذَا تَـبِلَّجَ نُـورُ الْفَجْـرِ أَرْحَـلُ غَادِيَـا
رُوَيْـدَكِ يَـا هُـوجَ الرِّيَـاحِ تَرَيَّثِـي سَـأَرْحَلُ وَالـدُّنْيَا سَـتَبْقَى كَمَـا هِـيَ

فالحركة الصاخبة لتلك الرياح تلتقي وفناء الشاعر وسكونه الأبدي في دلالةٍ على ضعف الكائن البشري وقلة حيلته، فتلك الظواهر الطبيعية في حالة ديمومةٍ، أمَّا الإنسان فهو إلى زوالٍ. ويقيم الشاعر حوارًا مع (ديدان القبر) معلنًا أنه لن يسلِّم دمه لتلعقه، إذ يقول[١]:

رُوَيْـدَكِ يَـا دِيـدَانُ لَـنْ تَلْعَقِـي دَمًـا تَفَجَّـرَ فِـي شِـعْرِي وَنَثْـرِي سَـوَاقِيَا

فقد تفجَّر في شرايين شعره ونثره المترعين بالقوة والحماسة والقيم، ومن ثم، فيستحيل على تلك الديدان أن تعده فريسةً سهلةً في القبر. ويبدو الحوار مع (وادي العاصي) في نهاية النص هو نواةً مركزيةً لفكره وفلسفته التي تعلي (الوطن)، وتهتم بأمور (الآخر)، وتدافع عن قضاياه بدمها وحياتها، إذ يقول[٢]:

وَيَـا وَادِيَ الْعَاصِـي وَقَـدْ كُنْـتَ دَوْحَـةً أُنَـاغِي بِهَـا الأَحْبَـابَ حُيِّيـتَ وَادِيَـا

فلم يضرب الملوحي أكباد الإبل وصولًا لمستقره الأخير كما فعل سابقوه القدامى، بل ضرب على أيدي السلطة تارةً، والسلب الذي يحاصره ويقض مضجعه تارةً أخرى دفاعًا عن مقدرات وطنه الحبيب. إن الموت لم يمنع الملوحي من الاشتغال بقضايا (العروبة) و(القومية)، ففي غضون تجربة الاقتراب من الموت رفع (الملوحي) مرساته، وشرع يدافع عن قضية الوطن العربي، وهو يعبر نهر الحياة، فلم تهدأ ثورته العارمة على الفساد، ولم يجف مداد قلمه، ولم تتزعزع ثوابته، فلقد أشعل الولوج في دوائر الموت حماسته، فتَطَلَّق لسانه من قيود ذاك (الآخر) في تلك التجربة العصيبة مثلما تَطَلَّق طيلة حياته، وانقطع إلى الدفاع

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠
(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

عن قضايا وطنه وقوميته، والتنديد بالمفاسد وهو واقفٌ على منبر الأزلية، فلم يحد الموت من طاقاته، ولم يكن –أبدًا– يتهدده، بل لقد أوغل به في مسارب القوة والمواجهة الحاسمة.

٤– التناص:

لقد وظّف (عبد المعين الملوحي) التناص غير مرةٍ في ثنايا مرثيته، وبدت في قصيدته أواصر الصلة بينه وبين سابقيه، الذين تناص معهم **(تناصًّا مباشرًا)**، فالشاعر قد اتكأ على بعض العبارات، وأعاد توظيفها في بنية القصيدة بما يتماشى مع نصه، . ومن الملاحظ أن الملوحي يستحضر إلى بنية يائيته نصوصًا أدبيةً بينة النسبة لغيره، ويعمل على ضفرها في يسرٍ وسهولةٍ في متن نصه وقد اعتمد الملوحي على **(التناص الأدبي)** الذي انقسم بدوره إلى:

أ- التناص مع الشعر:

يتناص الملوحي مع (أبي العلاء المعري) الذي يقول(١):

وَإن أسْتَطِعْ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا وَهيهَاتَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أشْغَال

ويقول الملوحي(٢):

فَإن أسْتَطِع فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا وَلَوْ خَطَرَتْ حُورُ الْجِنَانِ أمَامِيَا

فالملوحي يقف بالمتلقي على تفصيل أوجه النعيم المتمثلة في حور الجنان الفاتنات اللواتي يخطرن أمامه في فتورٍ، وهو سيعرض عنهن ليعود أدراجه إلى أرضه الحبيبة (وادي العاصي) مؤكدًا تفوقه في نفسه على (حور الجنان) في الإبهار والإمتاع، فروحه الظامئة إلى تراب ذلك الوادي لن تقنع بتلك المشاهدات

(١) عبد الله الطيب (ت ١٤٢٦ هـ)، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ط دار الآثار الإسلامية، وزارة الإعلام، الصفاة– الكويت، ط٢ ١٩٨٩م: ٢/ ٨١٩

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

الإيجابية الثرة المفعمة بالجمال، وسرعان ما تتركها، أما المعرّي فإنه سيطَّرِح واديه بعيدًا، ولن يقربه لأنه سيكون في حالة انشغالٍ، فالبون شاسعٌ بينه وبين الملوحي الذي سيهجر كل تلك المتع وصولًا إلى أرضه وأحبائه.

ب-التناص مع النثر:

- **مصطفى صادق الرافعي:**

ويتناص الملوحي مع الأديب (مصطفى صادق الرافعي) الذي يقول: (ما ألأم الشجرة التي لونطقت لشَتَمَتْ مَن يسقيها!) [١]، فأخذ الملوحي هذا المعنى وصاغه بقوله[٢]:

وَمَا أَلْأَم الأَشْجَار إِمَّا تَكَلَّمَتْ تسبُّ وَتَهْجُو غَارِسًا ثُمَّ سَاقِيَا

فالرافعي يقصر وقوع السلب على الساقي، أما الملوحي فيمتد به إلى الغارس والساقي معًا في إشارةٍ إلى المسؤولية التي تقع على عاتق المربي، فالخطأ مرده –بادئ ذي بدءٍ– إلى الغارس الذي يضع في الترب بذرةً فاسدةً ثم يتعهدها بالسقيا، فبيت الملوحي أكثر قوةً وبيانًا في تحديد العبء والمسؤولية.

والسؤال المطروح الآن هو:

- هل نزع الملوحي إلى توظيف تلك الحقول الدلالية التي تعبق بالماديات، وتكرس للعناصر الأرضية، أم عني بتلك الحقول التي تنزع إلى الروحانيات؟
- أي الحقول الدلالية كانت أكثر دورانًا وسيرورةً في وصف الملوحي لنفسه في غضون تجربته؟

(١) مصطفى صادق الرافعي، السحاب الأحمر، ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢م: ٢٥

(٢) عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجة الثقافة السورية– مدحة عكاش:

لقد عني الملوحي بتوظيف تلك الحقول الدلالية التي تؤطر أفكاره في إطارٍ واقعيٍ بعيدًا عن سبحات الخيال وتهويماته، ليأتي نصه بوصفه تقريرًا تفصيليًّا عن تاريخه ومسيرته الحافلة في هذه الحياة، وتأتي العناوين دالةً موحيةً على هذا المسلك، فقد عني بسرد تفصيلات حياته الماضوية، وأتى على ذكرها بشكلٍ بالغ الفنية والوضوح.

وتتباين أوصافه لذاته في ثنايا تلك التجربة، فهو يلتجئ إلى (الأوصاف الحسية) لوصف قوته الجسدية في شبابه، والإخبار عن ضعفه وهزاله في كهولته وشيخوخته، بينما يلجأ إلى (الأوصاف النفسية) لوصف مدى تمسكه بالمبادئ والأهداف.

ولعل من بين أبرز تلك الحقول التي اتكأ الملوحي عليها في صياغة مرثيته هي:

١- حقل اللون:

اعتمد الملوحي على الألوان النارية الصاخبة، نحو: (الأسود/ الأحمر) في وصف واقعه المأساوي الذي يعاني ويلاته، إذ يقول[(١)]:

أمَامِي غَدٌ كَالليْلِ أَسْوَد كَالِح وَخَلْفِي أمْسٌ كَانَ أحْمَر قَانِيَا

تشَابَهَتِ الألْوَانُ حَيًّا وَمَيِّتًا فَمَا لِيَ أشْكُو فُرْقَةَ الرُّوحِ مَا لِيَا

يقول جي. سي. كوبر في موسوعته المصورة عن رمز اللون الأسود إنه يعني: (الظلمة البدنية، والباطن، والشر، وظلمة الموت، والخزي، والقنوط، والخراب، والفساد، والأسى، والحزن، والذل، والتخلي، والنكران) [(٢)]

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٢٢

أما اللون الأحمر فقد فسَّره بقوله: (يمثل الشمس وكل آلهة الحرب، وهو الذكورة، والمبدأ الفعَّال، والنيران) [١]، فدلالة اللونين (الأكمر والأسود) تشيان بمعاني الفورة والغضب والحنق على ما مر به من تجارب مريرة.

وقد وظَّف اللون الأزرق في الدلالة على صفاء سريرته وأصالة نفسه، فيقول[٢]:

أَصَـالَةُ نَفْـسٍ لَا تَضِـنُّ بِنَفْسِـهَا تـدفق مثـل النَّبْـعِ أَزْرَق صَـافِيَا

٢- حقل أعضاء الجسد:

عُنِي الملوحي بجلب جملةٍ من أعضاء الجسد التي تتناسب وطبيعة المرحلة العمرية التي يتحدث عنها، فقد أورد في سياق حديثه عن فترة الشباب وجموحها وفورتها أعضاءً نحو: (الثغور الظامئات/ الصدور الناهدات) فقد اغترف من اللذَّات الحسية، فهو لم يكن زاهدًا في الحياة، مطَّرحًا لشهواتها، بل كان ضاربًا فيها بسهمٍ وافرٍ، بينما عُني بإيراد أعضاء نحو: (الأشلاء/ الظهر/ العظام البوالي/ الأعظم) في ثنايا حديثه عن شيخوخته وتدهور حالته الصحية، فتلك المرحلة تستدعي دوالًا تتصف بالضعف والهزال، فقد أحالت الشيخوخة قوته أنكاثًا.

٣- حقل النبات:

وقد أورد جي. سي. كوبر في (الموسوعة المصورة للرموز التقليدية) رمز النبات، فقال واصفًا إياه: (ترمز النباتات، مثل الأشجار والأزهار، إلى الموت والبعث، وقوة الحياة، ودائرة الحياة) [٣]

---

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٢٨

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

(٣) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ٤٥٩

وقد اهتم الملوحي بإيراد حُزمةٍ من مفردات حقل (النبات)، فقد استحضر ألفاظًا نحو: (أزاهير غضة/ غصون تسامت) لوصف أحفاده في مرحلة صباهم، للدلالة على الوفرة والقوة والازدهار والخصوبة، بينما يلح على مفرداتٍ نحو: (جذعٍ/ هشيمٍ) لوصف جسده في مرحلة الشيخوخة، وبيان أثر الضعف الذي يعتوره، فذلك التناقض بين مفردات المرحلتين يدعم ذلك البون الشاسع بينهما، ويستحضر بدوره معنى الحياة في مقابل الموت.

ويستدعي الملوحي مفرداتٍ نباتية مترعة بالنضارة في سياق وصف الحياة بعد مماته، إذ يقول: (ويكسو الحقول القمح أخضر زاهيا) [١] مؤكدًا ثبات الأحوال وديمومة الطبائع، فالحياة لن تتأثر برحيل أحدٍ، وستظل محتفظةً بدورتها وإيجابها.

٤- حقل الحيوان:

فسَّر جي. سي. كوبر في موسوعته المصورة رمز (الحيوانات) بأنه: (الحياة الغريزية، والخصوبة والحياة الحبلى، والدوافع الغريزية والعاطفية التي يجب أن يتجاوزها الإنسان، ويسمو فوقها قبل أن يدخل إلى العوالم الروحانية. وهي ترمز إلى المشاركة السلبية، وإلى الطبيعة الحيوانية في الإنسان) [٢]

وقد أورد الملوحي بعض المفردات التي تنتمي إلى حقل (الحيوان) نحو قوله[٣]:

إذَا رَكِبُوا ظَهْرِي حِصَانًا تَمَلْمَلُوا يُرِيدُونَ مُهْرًا ثَابِتَ الظَّهْرِ عَادِيَا

في دلالةٍ على مدى التحول الذي أصابه، وحاجة أولئك الأحفاد إلى (مهر) صغير السن يجاريهم في مرحهم وصخبهم وعدْوهم، وليس حصانًا كبيرًا.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة-مصر، ط١ ٢٠١٤م: ٢٣

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

ويستدعي لفظة (الأفاعي) للدلالة على الكبار وألاعيبهم ومكرهم ودسائسهم، فيقول[١]:

وَيَسْعَى إِلَى الصَّفِّ الصِّغَارُ عَنَادِلًا وَيَزْحَفُ فِي السُّوقِ الْكِبَارُ أَفَاعِيَا

ويصف نفسه في حربه على المستبدين الظالمين ب(البازي)، إذ يقول[٢]:

وَإِنْ أَرْهَقَ الشَّعْبَ الطُّغَاةُ وَجَدتَّني عَلَى كُلِّ طَاغٍ فِيهِ أَنْقَضُّ بَازِيَا

في دلالةٍ على قوته في درء السلب وقمع قوى الاستبداد، ويصف نفسه – كذلك– بالطير الشادي، إذ يقول[٣]:

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا شَذًى فَاحَ فثْرَةً وَطَيْرًا عَلَى سِكِّينِهِ ظَلَّ شَادِيَا

فهو في حريته وحله وترحاله كالطير الشادي الذي يغرد أعذب الألحان على الرغم ممَّا آل إليه من نهايةٍ مأساويةٍ قضت على آماله وقَوَّضَت حركته، وأجهزت عليه.

٥– حقل الموت:

حشد الملوحي جملةً من الألفاظ الدالة على الموت، نحو: (جثة/ عظام/ مقابر/ الثكلى/ المفجوع/ الحفرة/ ديدان القبر/ الضريح/ القبر المهجور)، وهي تنضح بالسوداوية وبؤس المصير. لقد أضحى شبح الموت مخيِّمًا على مخيلته، فلم تنضح إلا بتلك الصور التي تُطَوِّف بين جنبات القبر المظلم، وتؤكد شعوره البالغ بالأسى والفجيعة والعدمية.

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

٦- حقل الأفلاك:

يقول جي. سي.كوبر في موسوعته المصورة عن رمز (الكرة الأرضية): إنها (العالم بوصفه الدائرة والكرة السماوية، والأبدية، والاكتفاء الذاتي، والأرجحة الكونية، والسيادة فوق الأرض، والسلطان، والكرامة الإمبراطورية) [١]

وقد وظَّف الشاعر ألفاظًا نحو: (ضوء النجوم)، فالملوحي مازال راغبًا في الحياة محتفيًا بطقوسه وعاداته فيها، إذ يقول[٢]:

أصُوغُ أحَاسِيسِي وَأشْدُو قَصَائِدِي وَأقْرَأُ فِي ضَوْءِ النُّجُومِ كِتَابِيَا

ليُحدِث حالةً من التناسب بين (ضوء النجوم)، و(نور المعرفة)، فالظلمة التي تغشى الروح تكون نابعةً من (داخل) الذات وليس خارجها.

فالملوحي يمعن في التلذذ والاستمتاع بمفردات الطبيعة مهما بدت مألوفةً عاديةً، ويرى في تلك (الشموس) قدرةً على إنارة دربه، وإشاعة البهجة بين جنبات نفسه، إذ يقول[٣]:

أضِيئي حَيَاتي يَا شُمُوس سُوَيْعَةً فَلَمْ ألْقَ قَبْلَ الْيَوم إلَّا المآسِيَا

فالشاعر يوظِّف كلمة (الشموس) بصيغتها الجمعية في دلالةٍ على احتياجه في تلك الفترة العصيبة من حياته إلى جملةٍ مجتمعةٍ من عناصر الإيجاب والضياء التي تعمل بكثافةٍ وقوةٍ على محو قوى السلب والاحتضار التي استفحلت في حياته، فلم تعد شمس واحدةٌ قادرة على محو الظلام الدامس في حياته.

---

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ٢٤٦

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

٧- حقل الكتابة:

دفع الملوحي بجملةٍ من أدوات الكتابة إلى بنية مرثيته، فقد أتى على ذكر مفرداتٍ نحو: (القلم/ الطرس/ الحبر/ اليراع/ المداد/ الصفحة/ أوراق الدفتر/ منضدة الكتابة)، فهي ذخيرته في قبره التي ستعينه على استجلاء ذاته، وهي ملاذه الآمن في تلك الأوقات العصيبة، وسفينة النجاة في هذا السياق العسر، فبها يتحقق كينونته وأمنه واستقراره وسلامه النفسي.

٨- حقل النار:

ذكر جي. سي. كوبر في موسوعته رمز (النار)، فقال: إنها (التحول، والتطهر، وهِبَة الحياة، والقوة المولِّدَة للشمس، وتجدد الحياة، والتلقيح والنفوذ، والقوة، والطاقة، والطاقة غير المرئية في الوجود، والقوة الجنسية، والدفاع، والحماية، والجلاء، والفناء، والانصهار، والولع، والقربان، والتغير أو المرور من حالةٍ إلى أخرى، والوسيط لنقل الرسائل والقرابين) [١] وقد وردت بعض المفردات التي تنتمي إلى حقل النار، نحو: (الجمر/ الرماد/ اللهيب) التي وظَّفَها الملوحي في وصف نفسه، إذ يقول[٢]:

سَلَوْتُ عَنِ الدُّنْيَا اضْطِرارًا وَعنْوَةً وَأَصْعب شَيءٍ أنْ تَرَى الْجَمْرَ خَابِيَا
يحُورُ رَمَادًا قَاتِمَ اللوْنِ كَامِدًا وَكَانَ لَهِيبًا يُذْفئ النَّاسَ وَارِيَا

فالملوحي يصف نفسه بالجمر حال عطائه المتدفق وشبابه وقوته، ليستحيل بعد تجربة مرضه العضال ووقوفه على عتبات الموت الوشيك إلى رمادٍ بعد أن كان لهيبًا للدلالة على انطفاء جذوته وتَبَدُّل حاله.

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ٢٢١

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

٩- حقل الزمان:

ذهب جي. سي. كوبر إلى أن الزمن هو (الخالق، والمُبَدِّد، إنه القوة المدمرة، لكنه هو الذي يكشف أيضًا الحجب عن الحقيقة) [١]، وقد استدعى الملوحي عددًا من مفردات حقل الزمان ليوضح قوة تأثير الزمن عليه، نحو: (الإمساء/ الإصباح/ الليل/ دجى الليل/ الدجى)، فلفظة الدجى تأتي في سياق حديثه عن حاله بعد الممات، إذ يقول[٢]:

وَأَبْقَى أَنَا وَحْدِي أُصَارِعُ فِي الدُّجَى كَتَائِبَ دُودٍ رَائِحَاتٍ غَوَادِيَا

لتتناسب مفردة (الدُّجى) مع معاناته النفسية، وهواجسه ومخاوفه.

١٠-حقل المكان:

ذكر الشاعر في مرثيته جملةً من مفردات المكان، نحو: (كوخٍ من القش/ القفر/ الفلاة)، إذ يقول[٣]:

وَقَالُوا: سَئِمْتَ الْعَيْشَ، قُلْتُ: أُحِبُّهُ وَلَوْ كُنْتُ فِي كُوخٍ مِنَ الْقَشِّ ذَاوِيَا

فهو مستمتعٌ بالحياة في أبسط صورها، ولا يأبه بالشكليات الزائفة التافهة، فنضجه قد جعله يعاف تلك المظاهر، ويرى الإيجاب في الإحساس والشعور الحاصل بين جنباتها.

ويقول[٤]:

وَعَاطِفَةٍ لَوْ هَبَّ مِعْشَارُ خَصْبِهَا عَلَى الْقَفْرِ أَمْسَى الْقَفْرُ بِالزَّهْرِ كَاسِيَا

في إشارةٍ إلى قوة عاطفته وسحر تأثيرها على مفردات الحياة، فهي كفيلةٌ بتحويلها إلى النقيض، وتحقيق أقصى درجات الإيجاب التَّام.

---

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود: ٦٠٥

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ٩

(٤)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

١١-حقل الماء:

يقول جي. سي. كوبر: (المياه هي مصدر كل الاحتمالات الكامنة في الوجود، ومبتدأ كل أشيائه ومستقرها، واللاتمايز، والخفاء، والشكل الأول للمادة "وسائل التحقق الكلي".إن كل المياه هي رمز الأم العظيمة، وهي التي ترتبط بالميلاد، ومبدأ الأنوثة، والرحم الشامل، والمادة الأولية، ومياه الخصوبة والإنعاش، وينبوع الحياة، فالماء هو المعادل السائل للنور) [١]، وقد أورد الملوحي بعض الألفاظ المستمدة من حقل (الماء) الذي يرمز إلى الحياة والوفرة والنماء والتجدد، فيصف تغييرات الشيخوخة ب(السيل) القوي الجارف الذي يكر على الصخرة الصماء، إذ يقول[٢]:

فَأَقْعُدُ إِعْيَاءً كَأَنِيَ صَخْرَةٌ يَكُرُّ عَلَيْهَا السَّيْلُ غَضْبَانَ طَامِيَا

فالشاعر يُشَبِّه نفسه حال إعيائه بعد اللعب مع أحفاده بالصخرة الصماء التي يتدفق عليها السيل الجارف الغاضب، لتجتمع ثنائية (السكون/ الحركة).

ومن الملاحَظ أن تلك المسطحات (الخارجية) الكائنة في الطبيعة من حولنا، نحو: (السيل/ البحار) تأتي صاخبةً غاضبةً تشع ضجرًا وضيقًا وعنفًا بالغًا، أما عطاء الشعر الذي يتدفق من (داخل) الذات فيُشْبِه (النهر الجاري) الذي توحي حركته بالسلاسة والانسيابية، ولن تتأثر حركة تلك المسطحات المائية بعد رحيله عن دنيانا، إذ يقول[٣]

وتهدرُ بِالموْجِ الْبِحَارُ غَوَاضِبًا وَتَمْرَحُ فِي الرَّوْضِ الطُّيُورُ رَوَاضِيَا

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود: ٦٥٧

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة:

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

فموج البحار سيبقى محتفظا بعاداته الصاخبة بعد غياب الشاعر عن الحياة، وشاعريته تشبه في دفقها وقوتها (النهر الجاري)، إذ يقول[١]:

تَجِـفُّ يَنَـابِيعُ المنَاصِـبِ وَالْغِنَـى وَيَبْقَـى عَطَـاءُ الشِّـعْرِ كَـالنَّهْرِ جَارِيَـا

ومما سبق، يستطيع المتلقي أن يقف على ابتعاد الشاعر عن المادة والمظاهر الزائفة والشكليات التافهة التي لا تتناسب ونفسه الأبية النبيلة الفياضة بالعطاء والحب والسلام والخير.

والسؤال الذي يُطرح في هذا السياق:

على أيّ الحقول الدلالية اعتمد الملوحي في وصف حدث"الموت" الذي يعتور نفسه؟

اتكأ الملوحي في وصف حدث الموت على لفظة (الرحيل)، إذ يقول: (سأرحل والدنيا ستبقى كما هي) [٢]، فالرحيل عن العالم الأرضي هو إيذانٌ بالانتقال إلى حياةٍ أخرى، فهو رحيلٌ هادئٌ يتناسب وطبيعة تلك المرحلة التي عانى فيها الملوحي من مرضه العضال، واقترب فيها من عتبات الموت.

وقد آثر الملوحي إيراد بعض الألفاظ من (حقل الموت) التي تدل على لوازمه، نحو: (القبر/ الديدان/ الورود/ المرأة الثكلى التي تقف على قبور الموتى/ المفجوع عند قبره)، لتجسّد لقطاتٍ بانورامية لحاله بعد موته.

الأساليب:

تخيَّر الملوحي جملةً من الأساليب الإنشائية الطلبية التي وظفها بشكلٍ فنيٍّ في بنية مرثيته، ومن بين أمثلتها الدَّالة:

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٣

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

١ – أسلوب الأمر:

عمد الملوحي إلى (أسلوب الأمر) بشكلٍ يشي بحتمية الأوضاع وغلبتها وانصياعه للقدر، إذ يقول(١):

لَقَدْ رَضِيَ الأَحْيَاءُ كَدْحَ حَيَاتِهِمْ فَكُنْ بِسِكُونِ المَوْتِ يَا مَيْت رَاضِيَا

ليؤكد خضوعه التام للموت، واستسلامه الكامل له دون مقاومةٍ أو ثورةٍ، فعلى مَن سيلج قريبًا في دوائر الغياب والفقد أن يَقنَع بالنقيض، ويعتاد السكون ويرضى به. وهو يكيل أفعال الأمر لأولئك الشخوص في وصيته، إذ يقول(٢):

أَلَا فَاجْعَلُوا الأَكْفَانَ أَوْرَاقَ دفْتَري وَنَعْشِي يَرَاعِي وَالحنُوط مِدَادِيَا

ضَعُوا تَحْتَ رَأسِي مَا كَتَبْتُ وِسَادَةً وَلَا تَجْعَلُوا الصَّخْرَ الأَصَمَّ وِسَادِيَا

فهو حريصٌ على تفصيلات مشهد النهاية، وراغبٌ في الاحتفاظ بآلاته وأدوات إبداعه التي تهبه استنارةً بالغةً في قبره، وتستبين بها معالم ذاته وكينونته، وينتفض بها ضد آثار الزوال والعدمية، فالشعور بالظلام الدامس الذي يلفه في هذا السياق الآزم قد دفعه إلى هذا الطلب في إشارةٍ إلى استحكام قبضة السلب، ورغبة الذات الشاعرة في الانفلات منها. وهو يدفع عن نفسه بقوةٍ تلك الزخارف الدنيوية الزائلة، إذ يقول(٣):

وَلَوْ غَمَرُونِي بِالمنَاصِبِ وَالْغِنَى لَقُلْتُ لَهُمْ: خَلُّوا حَيَاتِي كَمَا هِيَا

فهو حريصٌ على عدم الافتتان بتلك الأوضاع المادية، وملتزمٌ بوضعيته التي تبتعد عن الشكليات والمظاهر الجوفاء، وهو يأمر تلك الشموس النيرة أن تنير ظلام حياته، إذ يقول(٤):

(١)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٠

(٢)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٣)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١١

(٤)عبد المعين الملوحي، مجلة الثقافة: ١٢

أَضِـيئي حَيَـاتِي يَـا شُـمُوس سـويعة فَلَـمْ أَلْـقَ قَبْـلَ الْيَـوْم إِلَّا الْمَآسِـيَا

٢- أسلوب الاستفهام:

عمد الملوحي إلى توظيف أسلوب الاستفهام الذي يوحي بغير دلالةٍ، فهو مترعٌ بالتعجب والدهشة في قوله: (فما لي بنفسي لا أعد رثائيا)، فنتاجه موقوفٌ على غرض الرثاء، فلا حرج عليه في نسج مرثية لنفسه عندما يتعرض لتلك الظروف العسرة، وكأن نسج مرثية لنفسه هي نتيجةٌ منطقيةٌ حتميةٌ تفرضها تلك المقدمات السلبية السالفة في حياته.

ويحمل الاستفهام دلالة الاستخفاف في قوله: (ومن أنا؟! شيءٌ كالهشيم ممزَقٌ) فهو يورد لفظة (شيء) للدلالة على الهوان وضِعَة الشان، فهو لا يملك التصرف في أقداره وتوجيهها وَفق هواه.

ويشير إلى الزجر والتقريع في قوله: (فما لي أشكو فرقة الروح ما لي؟)، فهو يريد من نفسه أن تكف عن إتيان الشكوى والضجر، فتلك الأقدار العسرة ملازمة له في حله وترحاله، ولا مفر منها.

٣- أسلوب التعجب:

وظَّف الشاعر أسلوب التعجب في قوله: (كأن لست ألقى في دمشق هراويا!) للدلالة على بالغ الأسى من سوء حظه الذي يطارده حيثما حلَّ، فقد كان يرجو في سفرته التوفيق والفلاح، فإذا به ينتهي إلى المرض العضال.

٤- أسلوب النداء:

ولعل من بين أبرز الأمثلة الدالة عليه في قصيدة الملوحي قوله: (ويا وادي العاصي)، فمناجاة واديه الحبيب تثير في نفسه المتوجعة شعورًا بالسعادة والأريحية والفخر والزهو، وترتفع به عن معاناة الواقع ومأساته، ويعتصم بها من الزلل.

الصورة ورثاء الذات:

حمل نتاج (الملوحي) في خضم تلك التجربة العسيرة كثافةً استعاريةً، بدت في غير مثالٍ، نحو قوله: (رشفتُ شبابي/ يعتب عليَّ شبابيا/ ويعجب مني الليل تصحو نجومه/ تولى شبابي مشرق الوجه/ ركبت المعاصي موجةً بعد موجةٍ/ بأرضٍ سعى قبلي إليها شقائي)، فجميعها يؤكد إمعان الملوحي في الاستمتاع بحياته على الوجه الأمثل، وضربه بسهمٍ وافرٍ في تجارب الحياة وأحداثها، فقد أشبعته تصاريف أيامه ظمأً وجوعًا.

ومن اللافت للنظر اكتناز مقطع (حياتي) بمراحله الثلاث بجملةٍ ثرةٍ من تلك الاستعارات التي تتناسب وحركية المواقف والأفعال، استقاها من حقولٍ دلاليةٍ شتى كالبحر والسماء تتسم بالانفتاح والوفرة في دلالة على سعة تجاربه ووفرة مشاهداته ليؤكد حصول حالة الزخم في نفسه.

وقد مثلت القصيدة لوحةً فنية متكاملة تعنى بالتفاصيل والدقائق وتتسم بالعمق والطول النسبي والنفس الشعري المائز.

لقد اكتنز (عبد المعين الملوحي) جملة دوال الخصوبة والبكورة والزهو والجدة والسعادة في حقل (الاحتضار) عندما وصف نفسه في شبابها وثورتها، ووصف مستقبل أمته بعد رحيله بما يتنافى وصورة الموت المتجذرة في العقل الإنساني عمومًا التي تفيض معالمها بالسلب والوحشة والفناء، فالمجهول الذي يُعَنِّي النفوس والعقول صار موفور القيمة في عين (الملوحي). لقد مثلت تجربة الاحتضار مسبارًا بالغ القيمة والأهمية في فض ماهية الحياة، واكتناه أسرارها، وسبر أغوارها.

نتائج البحث:

انتهت القراءة إلى جملةٍ من النتائج، ولعل من أبرزها:

- اتسمت مرثية الملوحي بنفَسٍ شعريٍّ مائزٍ كشف عن أبعاد تجربته الثرة في الحياة.
- لم يطمس ذلك السياق النفسي الآزم معالم فلسفة الشاعر، بل عمل على جلائها وصقلها.
- تباينت أوجه (الآخر) في تلك المرثية، وتراوحت بين السلب والإيجاب.
- مثَّل الوطن وقضاياه مفردةً رئيسةً ونواةً مركزيةً لمرثيته ألحَّ عليها في غير موضعٍ منها.
- لم يستطع الموتُ الانتصار على الملوحي، فقد مَثَّلت الكتابة في ذلك السياق الآزم معبرًا للأمان، وملاذًا آمنًا من الهلاك.
- لم تنقطع عرى الوشائج بين إبداع الملوحي في مرثيته تلك وسابقيه من أمثال (مالك بن الرَّيْب)، فقد اقتفى المحْدَث خُطَى القديم، ونفخ –في الوقت نفسه– في قصيدته من روحه وعصره وتجربته الخاصة في الحياة.
- لم تفرز مرثية الملوحي في رؤيته لذاته وماضيه ومآثره ومستقبل وطنه العربي دوالًا سلبية في ظل ذاك السياق العسر.
- ندَّد الملوحي في مرثيته بتلك الأنظمة السياسية الفاسدة التي أرهقت الشعوب العربية، وعطَّلت مسيرة الحرية والعدالة والإنسانية، فلم يُكَمِّمُ الموت فاه.
- شاعت في مرثية الملوحي في وصف ذاته تلك الصور المستمدة من حقل (النار) في دلالةٍ على القوة والتأثير البالغ فيمن حوله.
- حرص الملوحي على اعتناق بعض الأفكار دون أن يحيد عنها طيلة حياته مثل الاشتراكية، بينما هدم بعض الرؤى السلبية التي لزمته جراء أزماته السابقة، واطرحها بعد بلوغه مرحلة الكهولة.

- اتسم الملوحي بنزعةٍروحيةٍ، فلم يكن مكترثًا بالمادة، وبدا ذلك جليًّا في توظيفه مفرداتٍ مكانيةٍ في غاية التواضع.
- مثَّل الموت في تلك المرثية انطلاقةً من السلب الذي شاع بين جنبات الملوحي على الرغم من كونه محبًّا للحياة، وساعيًا إلى التنعم بمباهجها.
- لم تهتز المكانة الفنية للملوحي في غضون تجربته المريرة، فلقد أبدع في ذلك السياق العسر واحدةً من أجمل قصائده التي امتازت بالدفق والقوة.
- أرخى الموتُ للملوحي أعنة الإبداع، فقد وقف جُلَّ شعره على غرض الرثاء بعدما قاسى مرارة فقد زوجته (بهيرة)، وابنته(ورود).
- لقد استنطق الموتُ الملوحي، فظهرت بعض الجوانب الفكرية، والفلسفية المطمورة في شخصيته التي لم تكن لتخرج للعلن في ظل سياقٍ عاديٍّ.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصدر:

- عبد المعين الملوحي، عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مجلة الثقافة– مدحة عكاش، سوريا، يونية ١٩٨٤ م.

ثانيًا: المراجع:

المراجع العربية:

١- إبراهيم الحاوي، رثاء النفس بين عبد يغوث بن وقاص الحارثي ومالك بن الريب التميمي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٨٨م.
٢- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل، ط٥ ١٩٨١م.
٣- ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، الشعر والشعراء، ط دار الحديث، القاهرة– مصر ١٤٣٢ هـ.
٤- بسام موسى قطُّوس، سيمياء العنوان، ط وزارة الثقافة، عمان– الأردن، ط١ ٢٠٠١م:
٥- البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط مكتبة الخانجي، القاهرة– مصر، ط٤ ١٩٩٧م.
٦- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ)، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.
٧- خالد الجبر، ورزان إبراهيم، شعرية الفقد (جدل الحياة والموت في شعر الخنساء)، ط دار جرير للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط١ ٢٠١٢م.
٨- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ط دار التكوين.

٩- سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، ط دار الراتب الجامعية، بيروت– لبنان،.
١٠- سمر الديوب، الثنائيات الضدية (بحث في المصطلح ودلالاته)، ط المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، ط١ ٢٠١٧م.
١١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)، شرح شواهد المغني، لجنة التراث العربي ١٩٦٦م.
١٢- شاهر أحمد نصر، عبد المعين الملوحي أمير شعراء الرثاء (حوار وانطباع)، ط دار الكنوز الأدبية، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٦م.
١٣- شوقي ضيف، الرثاء، ط٤ دار المعارف، مصر.
١٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، مصر، ط ٢ ١٩٦٧م.
١٥- عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت–لبنان، ومنشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠٠٨م.
١٦- عبد الله الطيب (ت ١٤٢٦ هـ)، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ط دار الآثار الإسلامية، وزارة الإعلام، الصفاة– الكويت، ط٢ ١٩٨٩م.
١٧- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ط دار الآثار الإسلامية، وزارة الإعلام، الصفاة– الكويت، ط٢ ١٩٨٩م.
١٨- عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، ط دار الحضارة الجديدة، بيروت– لبنان.
١٩- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ط مكتبة دار التراث ١٩٩١م.
٢٠- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، ذيل الأمالي والنوادر، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق– مصر، ط١ ١٣٢٤ هـ.

٢١- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطَّاب (ت ١٧٠ هـ)، جمهرة أشعار العرب، حققه علي محمد البجادي، ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٢- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، ط الدار العربية للعلوم ناشرونن بيروت– لبنان، ط منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠١١م.
٢٣- محمد غازي التدمري، مع قصيدتي بهيرة وورود – عبد المعين الملوحي بين الشك واليقين، ط ار الإرشاد للنشر، حمص– سوريا، ٢٠٠٧م.
٢٤- محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
٢٥- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ)، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق كرنكو، ط مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٢ ١٩٨٢م.
٢٦- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ط دار الكتاب العربي.
٢٧- ناظم مهنا، عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب.
٢٨- هاجد دميثان الحربي، الرثاء في الشعر السعودي، ط جامعة الملك سعود، الرياض– السعودية، ٢٠١٣م.
٢٩- اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (ت ٣١٠هـ)، كتاب الأمالي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن– الهند، ط١ ١٩٤٨م.

المعاجم:

٣٠- أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤ هـ)، الكليات (معجم في لمصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، ط٢ ١٩٩٨م.
٣١- التهانوي، محمد بن علي (ت ١١٥٨ هـ)، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٦م

٣٢- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس.
٣٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ١٩٨٢م.
٣٤- جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م.
٣٥- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)، كتاب العين، تحقيق مهي المخزومي، وإبراهيم السامرائي.
٣٦- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت ٥٣٨ هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٨م
٣٧- فاروق شوشة، معجم مصطلحات الأدب، ط مجمع اللغة العربية، القاهرة– مصر، ٢٠٠٧م
٣٨- فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط١ دار النهضة العربية، بيروت– لبنان.
٣٩- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط.
٤٠- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ط دار قباء الحديثة، القاهرة– مصر.
٤١- مصطفى حسية، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط ١ ٢٠٠٩م.

الكتب المترجمة:

٤٢- أرنولد توينبي، الإنسان وهموم الموت، ترجمة وتقديم عزت شعلان، ط المركز القومي للترجمة، مصر، ط١ ٢٠١١م.

٤٣-جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، إبريل ١٩٨٤م.

٤٤-كاتي وايلز، معجم الأسلوبيات، ترجمة خالد الأشهب، ط المنظمة العربية لترجمة، بيروت- لبنان، ط١ ٢٠١٤م.

الدوريات:

٤٥-إلياس قطريب، وقفة مع قصيدة: عبد المعين الملوحي يرثي نفسه، مقال بمجلة الثقافة- مدحة عكاش، سوريا، العدد (٣) بتاريخ (ا) مارس ١٩٩٧م.

٤٦-نوري حمودي القيس، ديوان مالك بن الريب، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٥/ ١٩٦٩.

الملحق

قصيدة عبد المعين الملوحي يرثي نفسه

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
تمنيتَ يا بن الرَّيبِ لو بتَّ ليلةً ... بجنب الغَضا تُزْجي القلاصَ النواجِيا
وأمنيتي لو بتُّ في حمص ليلةً ... فأسبح في العاصي وألقى لداتيا
كلانا تهاوى حلمه ، لم ترَ الغضا ... ولا أنا في الميماس ألقي رحاليا
أمانٍ أضلتنا طويلاً و أقلعت ... وكانت أضاليل الرجال الأمانيا
سَرابٌ يغرُّ الركب حران صادياً ... ويغمر بالماءِ الغرور الصَّحَارِيا
إذا كان شِعري ، كل شِعري مراثياً ... فما لي بنفسي لا أعد رِثائِيا
ونفسي أولى أن تكون قصيدةً ... تسيل قوافيها نشاوى دَوامِيا
وأقسى المآسي أنني بت راثياً ... حياتي ، وما زالت تمورُ دمائيا
أقول لأصحابي : كفاكم ملامة ... على نفسه فليبك من كان باكيا
عكفت على شعري أرودُ فِجاجه ... فلم أرَ في الدِّيوان إلاّ المراثيا
وأشباحَ أفراح إذا رنَّ عودها ... تقطعت الأوتار فارتد ناعيا
رشفتُ شبابي قطرةً بعد قطرةٍ ... وشبت فلم يعتبْ عليّ شبابيا
وَردْتُ الثغور الظامئات مناهلاً ... وطفت الصّدور الناهدات مجانيا
تهيم بهن الروح روحاً فإن طغتْ ... وأَذكتْ دمي أطفأت في الجسم ناريا
إذا الحبُّ أرضى الرُّوح والقلبَ أوّلاً ... تسامى فأرضى الجسم والدَّم ثانيا
وقد تذبل الأرواح يحرمن قبلةً ... كما تذبل الأزهار يحرمن ساقيا
ولم يَرَني الإمساءُ أَرْقُدُ خاليا ... ولم يرني الإصباحُ أنهضُ صاحيا

ولم ينسني لهوُ الحياةِ مشاغلـــي ... ولـم يُنسني جِدُّ الحياة الملاهيـــا
ويعجَبُ منّي الليل تصحو نجومــه ... وتَغفـو ترانـي دارسـاً ثـم لاهيـــا
وخيرُ السَّجايا أن توزع منصفــاً ... حياتك : شطريها حليماً وغاويـــا
عَشِقت شبابي صُغت فيه مدائحـــي ... فلمـا تـولى صُـغتُ فيـه أهاجيـــا
تـروقُ العناقيـدُ الثعالـبَ حلـــوةً ... ويشـتمنها إن كـنَّ عَنْـها نوائِيـــا
تولى شبابي مُشرقَ الوَجْـه زاهيــاً ... وأقبـل شَـيبي كـالح الوجـهِ كابيـــا
ركبتُ المعاصي موجةً ثم موجـــةً ... وأقعـدني دائـي فعِفتُ المعاصيـــا
سقيتُ الصّبايا ماء حبي وصبوتـــي ... وجفَّ ، فهل يقبلن ماءَ حنانيـــا ؟
وطوَّفتُ في الآفاق أقبس نورهـــا ... فضاقت بي الآفاق كالنحل ساعيـــا
ويَمَّمتُ أرض الصّين أشدو تُراثهـــا ... ومـن لغتـي أهـدي لهـا وتُراثيـــا
فلم تسع الأرضُ الرَّحيبةُ هِمَّتـــي ... فكانـت أفـانينُ السـقام جزائيـــا
وقد زودتني في رحيلي هـــراوة كأن ... لسـت ألقـي فـي دمشـق هراويـــا
وعُدتُ إلـى داري أجرُّ علـى الـعصى ... تـواليَ أشـلائي وأحمـل دائِيـــا
كذلك حظي ، إن طلبتُ سعـــادة ... بـأرضٍ سعى قبلي إليها شقائيـــا
إذا لـم يـقِ الله الفتـى بحنانـــهِ ... ورحمته لم يلقَ في الناس واقيـــا
وقالوا : " سئمت العيش " قلت : أحبـه ... ولو كنت في كوخ من القش ثاويـــا
أصوغ أحاسيسي وأشدو قصائـدي ... وأقرأ فـي ضـوء النجـوم كتابيـــا
وأرسل صوتي في الفلاة مدوّيــاً ... وأضحك وحدي في دجى الليل هازيـــا
أحب حياتي ، وهي كالصاب مـرةً ... وأكره موتي ، وهو كالشهد حاليـــا
جنـوني أصـيل لا أريـد فراقـــه ... وعقلـي أصـيل لا يريـد فراقيـــا
صـحبتها دهـراً معـاً فتعايشـــا ... وكنـت بهـذين النقيضـين راضيـــا
جنـوني أرانـي المبكيـات مهـــازلاً ... وعقلـي أرانـي المضحكات مآسيـــا

وما زلت في السبعين طفلاً تشابكت ... رؤاي ، تساوى واقعي و خياليا

أسرُّ بأحفادي أزاهير غضةً ... ويرثي لي الأحفاد أعجف باليا

غصونٌ تسامت فوق جذع محطم ... إذا زاد يبساً زدن هن تساميا

أداعبهم حيناً فأقصر لاهثاً ... وتشغلهم ألعابهم عن عنائيا

إذا ركبوا ظهري حصاناً تململوا ... يريدون مهراً ثابت الظهر عاديا

ويفرح أحفادي إذا كنت لاهيا ... ويسخر أحفادي إذا كنت واهيا

إذا رحت أحكي عن شبابي تغامزوا ... ولاح لهم وجهي فألغوا شبابيا

تراءى زمانٌ سوف يدعى زمانهم ... وولىّ زمانٌ كان يُدعى زمانيا

وأسرع في سيري وأنسى مواجعي ... فيوقظني من عنف سيري لهاثيا

فأقعد إعياء كأني صخرة ... يكر عليها السيل غضبان طاميا

وأبحث عن ركن قصي لعلني ... ألملم جسماً ذابل العود ذاويا

سلوتُ عن الدُّنيا اضطراراً وعنوة ... وأصعبُ شيءٍ أن ترى الجمر خابيا

يحور رماداً قاتم اللون كامداً ... وكان لهيباً يدفئ الناس واريا

وما اخترت في ماضي الزمان ولادتي ... ولا اخترت في باقي الزمان وفاتيا

ومن أنا ؟ شيءٌ كالهشيم ممزقٌ ... تُخطِّط لي هوجُ الرياح مساريا

تلاعبُ بي خفضاً ورفعاً وتنتهي ... من العبث المحموم يوم انتهائيا

رويدكِ يا هوجَ الرِّياح غداً إذا ... تبلج نورُ الفجر أرحل غاديا

رويدكِ يا هوجَ الرِّياح تريثي ... سأرحل ، والدُّنيا ستبقى كما هيا

ستطلع بعدي الشمس حمراء تزدهي ... ويبزغ بعدي البدر أصفر وانيا

وبعدي تدور الأرض لم تدر من أنا ... وتشدو السواقي في المروج الأغانيا

ويكسو الجبال الثلجُ أبيض ناصعاً ... ويكسو الحقولَ القمحُ أخضر زاهيا

وتهدر بالموج البحارَ غواضباً ... وتمرح في الروض الطيورُ رواضيا

ويسعى إلى الصف الصغارُ عنادلاً ... ويزحف في السوق الكبارُ أفاعيا
وتخطر في الدرب الصبايا أقاحياً ... وترقص في المرج الأقاحي غوانيا
وأبقى أنا وحدي أصارع في الدُّجى ... كتائب دودٍ رائحات غواديا
تمزق أشلائي وتفقأ أعيني ... وتنثر في جوف التراب رفاتيا
غداً سوف ينسى الأهل والصَّحبُ حُفرتي ... كما أنا في الماضي نسيتُ رِفاقيا
إذا مرَّت الثكلى بقبري توجَّعتْ ... فأهدت له غُصناً من الآس ضاويا
ويعبرُ مفجوعٌ فيلقي بزهرةٍ ... تُعَطِّرُ أحجار الضريح لياليا
على قبري المهجور تبكي غريبةٌ ... إذا لم تجدْ مِ الأهل والصحب باكيا
لقد رضيَ الأحياء كدح حياتهم ... فكنْ بسكونٍ الموتِ يا ميت راضيا
رويدك يا ديدان لن تلعقي دماً ... تفجر في شعري ونثري سواقيا
ولن تطمسي فكراً جريئاً رعيتهُ ... وعلمته حتى عصتني لهاتيا
وكنت من الأحرار إن قيل: من فتى؟ ... برزت ودوَّى كالرعود جوابيا
وعشت اشتراكياً إذا جاع جائع ... أحسُّ لهيبَ الجوع يفري فؤاديا
وإن ثار في الأرض العبيدُ وجدتني ... نصيراً لزحف الثائرين مُواليا
وإن أرهق الشعبَ الطغاةُ رأيتني ... على كل طاغ فيه أنقضّ بازيا
وهبت عيوني للشعوب بصيرةً ... ويُعمي عيونَ الغاصبين رماديا
وعلقت في جيد العروبة شعرها ... وآدابها عقداً تلألأ غاليا
وأُترعُ سِفرَ الثائرين مآثراً ... وأملأ أسفارَ الغزاة مخازيا
إذا كللتْ بالنصر ثورةُ أمةٍ ... رأيتُ بها – رغم الضَّحايا – عزائيا
لقد كتبتْ نصرَ الحياة دماؤُنا ... فبالك نصراً طيب العطر زاكيا
أمانيَّ للدنيا وللناس كلِّهم ... إذا ما تمنى المترفون الأمانيا
غداً يطلع الإنسان في الأرض كوكباً ... تباهي به الأرضُ النجومَ الدراريا

ولستُ أبالي أن أكون فداءه ... أما كانت الأحرار قبلي فدائيا ؟
إذا لم أجدْ في عالم اليوم مطمعي ... ففي العالم الآتي السعيد رجائيا
يقولون لي : لن تشهد الفجر ساطعاً ... بلى ، كنت قبل الفجر للفجر هاديا
وكنت شعاعاً من أشعة نوره ... يشق ستار الليل أسود داجيا
إذا ما طواني الموت قبل انبلاجه ... فحسبي أني كنت للركب حاديا
رفعتُ لواءَ الفكر ستين حِجَّةً ... فما ضمَّ إلاّ الكادحين لوائيا
همُ عُدَّتي في النائبات وأسرتي ... أقود بهم جيشاً على البغي ضاريا
يَسُرُّ المعالي أن نخوضَ غِمارها ... ونُبدعَ إنسانَ الحضارة راقيا
مضى عهدُ وحشٍ أفسد الأرض جاهلاً ... وأقبل عهدٌ يُصلحُ الأرضَ واعيا
صبونا إلى الآتي تَبَلَّجَ حانياً ... وثرنا على الماضي تصرم داميا
وداعاً بني الدنيا وداعَ مسافر ... إذا ما شجا الأحرارَ يوماً فراقيا
أمامي غدٌ كالليل أسود كالحٌ ... وخلفي أمسٌ كان أحمر قانيا
تشابهتِ الألوانُ حياً وميتاً ... فما لي أشكو فرقة الرّوح ما ليا ؟
ألا فاجعلوا الأكفانَ أوراقَ دفتري ... ونعشي يراعي ، والحنوطَ مِداديا
ضعوا تحت رأسي ما كتبت وسادةً ... ولا تجعلوا الصخر الأصمَّ وساديا
لعليَ في قبري أطالعُ صفحةً ... فألمحُ في تلك الصحائف ذاتيا
تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد ... سوى قلمي والطرس والحبر باكيا
ومكتبةٍ أودعت روحي رفوفها ... تكاد إذا ما مت تسعى أماميا
ومنضدةٍ سوداءَ كاد حديدها ... يذوبُ إذا الإلهام أعرض نائيا
وأفكارِ صدقً قد تلألأن ثورةً ... أنرنَ لعميان الحياة المعاليا
وعاطفةٍ لو هبَّ معشارُ خِصبها ... على القفر أمسى القفر بالزهر كاسيا
وخلَّفتُ عمري ، رغم أنفي ، ستَّة ... وستين عاماً راعفاتٍ دواميا

ولو غمروني بالمناصب والغنى ... لقلت لهم : خلوا حياتي كما هيا
تصعلكت أعواماً وكافحت دائماً ... وأرخيتُ في دربِ الحياة عنانيا
كفرتُ بربي أربعين فمذ بدا ... لي الشيبَ خلَّفتُ الشكوكَ ورائيا
وقال رفاق الأمس : ضلّ طريقه ... معاذ إلهي ، بل تركت ضلاليا
قصرت على ربي وشعبي مودتي ... فيا ليتهم يبدو لهم ما بدا ليا
وما خنت عهدي للشعوب وإنما ... دعاني ، فلبيت الهدى إذ دعانيا
وآمنت بالإنسان يبني حضارة ... ويهدم في الإنسان ما كان باليا
وأعرضُ ألحاني على الناس حلوةً ... ويغمرهم بالدفء فيض وفائيا
ويلمس فيها الناس قلبي نابضاً ... ويبصر فيها الناس دمعي جاريا
تعوَّدتُ أن أعطي وأسقيهم دمي ... وحسبك جوداً أن ترى الدم ساقيا
ولم أترقب حين – أعطي – عطاءهم ... كفاني أني ما حجبت عطائيا
إذا كنت أبغي من عطائي علاوة ... فلست إذن في الخير إلا مرابيا
أصالة نفس لا تضن بنفسها ... تَدَفَّقَ مثل النبع أزرق صافيا
وليس يطيب الجود إلا إذا سما ... عن المن ، بل أُمسي من الشكر خاليا
ولست بإنسان تسامى ضميره ... إذا أنا لم أعط الحياة حياتيا
دفنت سروري في مصائب أُمَّتي ... فكانت حياتي الروض لم يلق راويا
بقايا من الأطلال تندب أهلها ... وصار حديثاً يوجع القلب شاكيا
وأزرع آمالي فأحصد خيبة ... وأغرس أحلامي فأجني عواديا
إذا ما وردت النبع كالشهد ماؤه ... صدرت طريداً ظامئ النفس صاديا
وأعجب أني ما فقدت تفاؤلي ... وأني أبني في الرمال المبانيا
وعشت عفيفاً راضي النفس قانعاً ... يراني صحابي ناعم العيش ضافيا
خرجت من الدنيا شذى فاح فترةً ... وطيراً على سكّينه ظلَّ شاديا

يقولون لي : كانت حياتُك خصبةً ... وأعطيتَ ما أعيا السحابَ الهواميا
فقلت لهم : خلوا الثناء فإنني ... أحبُّ صديقي صادقاً لا محابيا
أضعت حياتي ، لم أصغها كما اشتهى ... ضميري فطارت في الرياح سوافيا
درايَّ أعطتها الحياة كريمةً ... فبعثرت في الصحراء تلك الدَّراريا
أضيئي حياتي يا شموس سويعةً ... فلم ألق قبل اليوم إلا المآسيا
فإن لم تكن شمسٌ توقدَ نورُها ... فهل شمعةٌ عجفاءُ تؤنس ساريا
تبدد شيئاً من ظلام يلفُّني ... وتدفئ في شح عظاماً بواليا
وإن لم تكن أنهار شهدٍ وخمرةٍ ... فهل فضلة في الكأس تروي عظاميا ؟
وتنعش إنساناً تمزَّق واهياً ... وقد كان صلداً كالحجارة قاسيا
عَرضتُ على كل الوجود عواطفي ... فلم أر في سوق النخاسة شاريا
وأجنح أحياناً إلى الشَّرِ والأذى ... فإن كدتُ أغشاه ذكرتُ حيائيا
وأصبر أحياناً وأغضي على القذى ... فيعصف بي عصفَ الرّياح إبائيا
وما أنا من يبكي على الناس حاقداً ... ولكنني أبكي على الناس حانيا
صبرت على حلو الزمان ومرّهِ ... فلأياً تساوى جورُه واصطباريا
ولم ترني النعماءُ أشمخُ جاسياً ... ولم ترني البأساءُ أخشع جاثيا
سلامٌ على الدنيا سلامَ مودِّع ... فقد حان عن هذي الدِّيار ارتحاليا
وفي الشعر لي مأوى ألوذ بظلِّه ... وفيه إذا عزّ الدواءُ دوائيا
هو الشعر مثلُ الجمر في القلب وقُده ... يطوّف في الأضلاع حرّان كاويا
إذا صُغته أُشعِرتُ روحاً وراحة ... وإن لم أصغه ظلَّ يلهث واريا
تجفُّ ينابيعُ المناصب والغنى ... ويبقى عطاءُ الشعر كالنهر جاريا
ومن يهوَ موجَ البحرِ يهوَ هديرَه ... ومن يهوَ موج الشعر يهوَ القوافيا*
غرست غراساً وانتظرت ثمارها ... فلم تعط إلا الشوك صلداً غراسيا

إلى الله أشكو من رعيت عُهودهم فلم أرَ منهم في الملمَّات راعيا
تلاميذُ عقُّوني مريضاً فليت لي بأفضلهم كلباً يبصبص وافيا
غداً سوف يبكون المعلمّ جُثّةً وقد صار عظماً في المقابر عافيا
تناسوا حقوقي في الحياة فإن أمتْ تباكوا على القبر الوفيّ تباكيا
وما ألأم الأشجار إما تكلمت تسب وتهجو غارساً ثم ساقيا
أموتُ وفي قلبي على مصر حسرةٌ تباعدُ إخواناً وتدني ضواريا
وأخرى على الجولان يعول شيخُه وأقتل شيءٍ أن ترى الشيخ باكيا
وثالثة في القدس ترثي لمؤمنٍ إذا ما تلا القرآن يُذْعَرُ تاليا
وأخرى على بيروت سالت دماؤها إلى البحر حتى أصبح البحر قانيا
وخامسة هبت ببغداد نسمةً على دجلةٍ تبغي إلى الحق هاديا
تشن على الأصحاب حرباً ذميمة وتترك في يافا وحيفا الأفاعيا
وعددت خمساً من كوارث أمتي وأمسكت أخشى أن تزيد تماديا
وأنذر قومي إن تمادوا تمزُّقاً هزائم لا تبقي من العرب باقيا
ولو أننا عشنا كراماً بأرضنا ظفرنا ، ولكننا نعيش جواريا
إذا هان شعب واستكان لحاكم فهيهات يوماً أن يصد الأعاديا
وهيهات يوماً أن يحرر غيره إذا كان في الأصفاد يرسف عانيا
يدمِّر جيش المستبدين شعبه زماناً ، ولكن لا يدمّر غازيا
وأومأت إيماءً لمحنة أمَّتي عسى يتقصَّى الأذكياءُ المغازيا
أقول– وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر قومي أطلقوا من لسانيا
ذرفتُ رثائي دمعةً بعد دمعةٍ إذا رحل الأحبابُ طال وداعيا
وداع امرئٍ ميتٍ أحبّ رفاقه وأيقن بعد اليوم أن لا تلاقيا
دعوني أطرح بعد موتي متاعبي كفانيَ ما لاقيت حياً كفانيا

لقد عشت بّحاراً قضى العمر تائهاً   ولاح له شطٌّ فألقى المراسيا
ويا واديَ العاصي وقد كنتَ دوحةً   أناغي بها الأحبابَ حُيِّيت واديا
لئن مزّقَتْ أيدي السياسة شملَنا   فمازال قلبي صادق الودِّ صافيا
سأودع في أحجارك السود أعظمي   فلا يك . مثل الناس . صخرُك قاسيا
فإن أستطِعْ في الحشرِ آتكَ زائراً   ولوْ خَطَرَتْ حُورُ الجنانِ أماميا
ولو خيَّروني لثم ثغر حبيبتي   ولثم ثَرى حمصي لثمتُ تُرابيا